سلسلة الرحلات

العرب...
لا خريستوف كولمبس

محمد سعيد العريان

العرب... لا خريستوف كولمبس

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

الطبعة الأولى ١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

العريان، محمد سعيد
العرب... لا خريستوف كولمبس
تأليف: محمد سعيد العريان
دار مبدعون للنشر والتوزيع، مصر، ٢٠٢٠م.
١٣٣ ص، ١٤ × ٢٠ سم.
تدمك: ٦-٢٥-٦٦٩٧-٩٧٧-٩٧٨
١- العرب
أ- العنوان

رقم الإيداع
٢٠١٩/٢٦٠٣٥

ترقيم دولي
978-977-6697-25-6

العنوان: القاهرة
المبيعات: ٠٠٢٠١١١٠١١٧٤٤٧
الإدارة: ٠٠٢٠١٠٠٦٣٣٠١٤٩
فيسبوك: www.facebook.com/Mobdeuon
البريد: mobdeoun.books@gmail.com

العنوان: القاهرة
المبيعات: ٠٠٢٠١١١٠١١٧٤٤٧
الإدارة: ٠٠٢٠١٠٢٢٣٣٠٤١
الموقع: info@mofakroun.com
البريد: www.mofakroun.com

تقديم

في عام ٢٠٠٠م اكتشفت لويزا أيزابيل ال فيريس دو توليدو Luiza Isabel al ferris Do Tolido دوقة مدينة سيدونسا Cedonia وسليلة إحدىٰ أكبر العائلات الإسبانية الحاكمة أثناء ترميم قصرها وثائق إسبانية مهمة باللغة العربية فيها وصفٌ دقيقٌ لأمريكا أو العالم الجديد قبل أن يصلها كريستوفر كولومبس، ومن ثم قامت بنشر هذه الوثائق في كتاب تحت عنوان Africa versus America أوردت فيه الأدلة التاريخية الدامغة علىٰ أنَّ المسلمين هم من اكتشفوا أمريكا وليس كولمبس كما يحلو للغرب أن يدَّعي.

وحسب المصادر التي يُروِّج لها الغرب؛ فقد كان اكتشاف أمريكا في عام ١٤٩٢م، وهو ذات العام الذي شهد سقوط المسلمين في الأندلس، ويبدو أنَّ الدموية إيزابيلا ملكة أسبانيا (١٤٥١-١٥٠٤م) كانت قد تسامعت بما تداوله المسلمون من محاولات سابقة للوصول إلىٰ هذه الأراضي فوجَّهت نحوها كريستوفر كولمبس الذي طلب بدوره استصحاب عدد من البحارة المسلمين، وهو ما حدث فقد رافقه ثمانية من أمهر البحارة المسلمين؛ لكن العجيب أن الإسبان وأولهم إيزابيلا وكولمبس كانوا علىٰ يقين أنَّ في هذه البلاد مسلمين؛ ومن ثم كتبت إيزابيلا خطابًا لأهل هذه الأرض باللغة العربية.

ثمة إشارات تاريخية -لا وقت لتفصيلها هنا- منها أن مخطوطة لابن الزيات المتوفَّىٰ عام ٥٩٤هـ لم يتلفها الهوىٰ الأوروبي محفوظة بقصر الإسكوريال في إسبانيا رسمها للعالم ورسم فيها أمريكا أيضًا، وإشارة أخرىٰ للمؤرخ المسعودي (٢٨٣-٣٤٦ هـ = ٨٩٦- ٩٥٧م) في كتابه الأشهر "مروج الذهب ومعادن الجوهر" أنه في عام (٨٨٩هـ - ١٤٨٤م) أي قبل نحو خمسة قرون من اكتشاف كولمبس خاض مغامر عربي اسمه خشخاش بن سعيد القرطبي تجربة استكشاف هذه الأرض مع مجموعة من أصحابه.

ليس هذا فحسب؛ بل هناك حديث كثير عن الدور العماني والدور التركي في اكتشاف هذه البلاد المجهولة التي صارت فيما بعد سببًا رئيسًا لشقاء العالم أجمع، وما الدور الأمريكي الآن بخافٍ عن كل ذي عينين!

في هذا الكتاب الذي كتبه الأستاذ محمد سعيد العريان (١٩٠٥- ١٩٦٤م) بحماسة العربي المسلم محاولة أدبية جادة لإثبات هذه الحقيقة التي تتجلىٰ أمام الباحثين يومًا بعد يوم، وهي تجربة فريدة في التأكيد علىٰ دور الأدب في خدمة التاريخ، وهو الاتجاه الذي نراه في أدبيات مدرسة الأصالة من أمثال مصطفىٰ صادق الرافعي (١٨٨٠- ١٩٣٧م) وعلي الجارم (١٨٨١-١٩٤٩م) ومحمد فريد أبو حديد (١٨٩٣-١٩٦٧م).

ويظهر اهتمام العريان بالتاريخ كرافدٍ أساس من روافد الأدب في الروايات التاريخية التي كتبها: علىٰ باب زويلة (١٩٤٦)، وقطر الندىٰ (١٩٤٥)، وشجرة الدر (١٩٤٧م)، وبنت قسطنطين (١٩٤٨م)، وهي أعمال إبداعية كانت مثالا يُحتذىٰ به فيما بعد من كثير من الأدباء علىٰ اختلاف مشاربهم من أمثال الدكتور محمد رجب البيومي (١٩٢٣-٢٠١١م) والدكتور محمد المنسي قنديل (١٩٤٩- ...) وغيرهم.

إنها فرصة كبيرة لنذكر لمحمد سعيد العريان فضله في الأدب بشكل عام والرواية التاريخية بشكل خاص، ولعل قادم الأيام يشهد إنصافًا أكثر لهذا الرجل الذي تغيَّا الحفاظ علىٰ الهوية العربية والإسلامية في وقت عزَّ فيه الإنصاف.

والله ولي التوفيق

وليد عبد الماجد كساب

مصر

٨ جمادىٰ الأول ١٤٤٠هـ

١٤ يناير ٢٠١٩م

مكتبة سندباد

غاب "سندباد" عن أصدقائه منذ بضعة أشهر في رحلة من رحلاته البعيدة؛ ولكن سندباد لا ينسىٰ أصدقاءه إن غاب عنهم، ومن أجل ذلك يهدىٰ إليهم هذه "المكتبة".

إن "مكتبة سندباد" هي صلة الود الدائمة بينه وبين أصدقائه الذين عرفهم منذ سنين، وأخلص لهم الحب وأخلصوا له؛ وفي كل كتاب من هذه المكتبة أدب وفن ومعرفة وفكاهة وتسلية، تفيد أصدقاءه وتلذُّهم وتملأ نفوسهم انشراحًا ومسرة...

وهذا كتاب منها... فاقرؤوه يا أصدقائي، لتتزودوا منه بما شئتم من أفانين سندباد، حتىٰ يعود إليكم في كتاب آخر قريب...

وإلىٰ اللقاء...

سندباد

١

شاطئ بحر الظلمات!

منذ خمسمائة سنة، لم يكن أحد يعرف اسم "أمريكا" لأن أمريكا نفسها لم تكن معروفة، ولم يكن لها رسم في أي مصور جغرافي، ولم يكن يخطر علىٰ بال أحد من الناس أن في غرب المحيط الأطلسي أرضًا واسعة، هي الأرض المعروفة اليوم باسم أمريكا....

ذلك لأن الناس كانوا يعتقدون من قديم الزمان، أن شاطئ أفريقيا الغربي هو آخر الدنيا من جهة الغرب، فليس وراءه إلا ماء المحيط ممتدًا إلىٰ ما شاء الله...

وكانوا يسمون هذا المحيط "بحر الظلمات" لأن ما وراءه غامض مجهول، لا تراه العيون، ولا تتوهمه الظنون...

ولهذا السبب وقفت فتوح العرب في الغرب -منذ ألف وثلاثمائة سنة- عند حدود أفريقيا، ووقف القائد العربي **"عقبة بن نافع"** علىٰ شاطئ المحيط الأطلسي في المغرب قائلًا: لو كنت أعرف أن وراء هذا الماء أرضًا أخرىٰ لاقتحمت بفرسي هذا المحيط المائج، لأنشر دعوة الحق في أقصىٰ بقاع الدنيا!

وصدق القائد العربي، فلو أنَّ الفاتحين العرب كانوا يعرفون في ذلك التاريخ البعيد أنَّ في غرب المحيط الأطلسي قارةً كبيرةً هي القارة الأمريكية، لما وقفت فتوحهم في الغرب عند حدود أفريقيا، ولركبوا بحر الظلمات سابحين علىٰ ظهر الموج حتىٰ يصلوا إلىٰ أمريكا فيفتحوها، كما وصل الفاتحون العرب في الشرق إلىٰ الصين ففتحوها...

ولما وصل العرب في فتوحهم إلىٰ شاطئ المحيط الأطلسي، أيقنوا أنَّ ذلك آخر طريقهم في الغرب، فاتجهوا بأنظارهم إلىٰ الشمال؛ لينشروا دعوتهم في أروبا، كما نشروها في أفريقيا وآسيا.

وكانت البلاد التي تواجههم في شمال المغرب، هي البلاد المعروفة الآن باسم "إسبانيا، والبرتغال"، فتطلعوا إلىٰ فتحها وتعريبها...

وساعدهم علىٰ تحقيق هذا الأمل، أن الملك علىٰ تلك البلاد كان طاغيةً، شريرًا، فاسد الخُلق، يكرهه الأهالي ويريدون أن يتخلصوا منه؛ فأرسلوا إلىٰ القائد العربي في المغرب يدعونه إلىٰ دخول بلدهم ليحررهم من طغيان ذلك الملك الشرير الفاسد...

وكان القائد العربي الذي خف لنجدتهم وتخليصهم من جور ملكهم، هو طارق بن زياد المغربي، فاجتاز البحر المتوسط بجيشه إلىٰ الشاطئ الأوربي وحارب الملك الطاغية فهزمه...

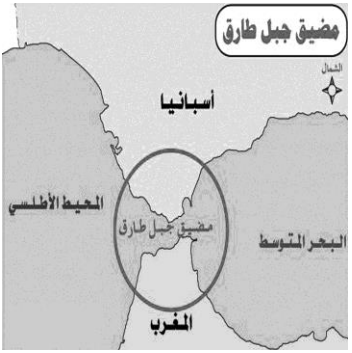

وقد سُميت المنطقة التي نزل فيها جيش العرب علىٰ الشاطئ الأوربي: جبل طارق؛ كما سُمىٰ المضيق البحري الذي اجتازه الجيش العربي إلىٰ ذلك الشاطئ: مضيق جبل طارق؛ نسبةً إلىٰ القائد العربي الفاتح، طارق بن زياد...

ولم يزل "جبل طارق" و"مضيق جبل طارق" معروفين بهذا الاسم في كل كتب الجغرافيا، إلىٰ اليوم، اعترافًا بفضل ذلك البطل العربي العظيم.

٢

دولة العرب في الأندلس

وقد أتم العرب فتح جزيرة إسبانيا والبرتغال بعد سنين قليلة من ذلك التاريخ، فعرَّبوها، وحرروا أهلها من الطغيان والظلم، وأقاموا فيها دولةً عربيةً عظيمة، اشتهرت في التاريخ القديم باسم "الأندلس"....

ولم تلبث دولة العرب في الأندلس أن اتسعت اتساعًا عظيمًا، حتىٰ جاورت أرض فرنسا في الشمال الشرقي، واقتربت من سواحل الجزر البريطانية في الشمال، وأشرقت علىٰ البحر المتوسط من شماله وغربه؛ وصار الناس جميعا في تلك الأنحاء يتكلمون بلغة العرب ويدينون بدين العرب!

ولكن العرب لم يقنعوا بما بلغوا من الفتح والنصر في تلك الأنحاء، لأنهم كانوا يريدون تعريب الدنيا كلها، وتحرير الشعوب في كل أرض؛ وكان أهل الشجاعة والهمة منهم يقفون علىٰ شاطئ المحيط الأطلسي وهم يتساءلون بينهم هل يمكن أن يكون وراء هذا البحر الواسع أرض أخرىٰ، لنفتحها، ونعرِّبها، ونحرر شعوبها من الجهل والخرافة ومن الظلم والطغيان!...

وارتقىٰ شأن العرب في الأندلس رقيًّا عظيمًا، واشتهرت دولتهم بالعلم وبالقوة وبالغنىٰ، وكثرت مدارسهم ومعاهدهم وجامعاتهم، ونبغ منهم العلماء والمفكرون والمؤلفون والفلاسفة والمهرة في الفنون وفي الصناعات؛ ووفد إليهم طلاب العلم من كل بلاد أوربا ليتزودوا بالعلوم والفنون والمعارف؛ فانتشرت علوم العرب وفنونهم ومعارفهم في كل ما حواليهم من البلاد، وبدأت أوربا تفتح عيونها وتتحضر، وكانت تعيش قبل ذلك في ظلام وهمجية!

ومن علم العرب في الأندلس اشتهرت نظرية جديدة في الجغرافيا لم يكن أحد يعرفها من قبل؛ وخلاصة هذه النظرية، أنَّ الأرض ليست جسمًا مسطحًا كما كان يظن القدماء، بل هي جسم يشبه الكرة، بعضه يابس، وبعضه مغطًّىٰ بالماء...

ومن هذا النظرية الجديدة، ابتدأت تفكيرات علمية جديدة؛ فلم يلبث العرب أن فكروا في هذا المحيط الأطلسي

الذي يجاور أرضهم، والذي يمتد غربًا إلىٰ حيث لا يدرىٰ أحد؛ فقال بعضهم لبعض: ما دامت الأرض كرة، فإن هذا المحيط لا يمكن أن يكون هو آخر الدنيا، ولابد أن يكون في غربه أرض أخرىٰ، تؤدىٰ إلىٰ بلاد الهند، من طريق غير الطريق التي يعرفها الناس!

وكان صاحب هذا الرأي، عالمًا فيلسوفًا من مشاهير علماء العرب في الأندلس، اسمه "ابن رشد".

سمع العرب في كل مكان هذا الكلام الذي يقوله الفيلسوف ابن رشد، فأخذوا يتطلعون من يومئذ إلىٰ اكتشاف تلك الأرض التي تقع في غرب المحيط الأطلسي والتي نسميها الآن أمريكا، قبل أن يفكر أحد من أهل أوروبا، أو من غير أهل أوروبا في اكتشاف أمريكا...

وتعددت المحاولات العربية من يومئذ للوصول إلىٰ تلك الأرض البعيدة المجهولة، في غرب بحر الظلمات...

٣

المحاولة الأولى

وكان أول من حاول خطةً لاكتشاف تلك الأرض، ملكًا من ملوك العرب، وهو ملك السودان الغربي، الواقع علىٰ ساحل المحيط الأطلسي، في جنوب المغرب، وكانت بلاده في ذلك التاريخ تسمىٰ "بلاد مالي".

وكانت هذه البلاد تملك أسطولًا بحريًّا كبيرًا، تحمل سفنه البضائع والمسافرين بين موانى أفريقيا الغربية؛ وكان بحارة هذا الأسطول رجالًا أشداء، ذوىٰ خبرة ومهارة وفن؛ فدعا الملك إليه بعض هؤلاء البحارة وقال لهم: أيها الرجال الشجعان، إنني أعتمد عليكم في مهمة عظيمة، إذا أديتموها بعزيمة وهمة فقد أديتم لأمتكم ولأنفسكم خيرًا عظيمًا...

قالوا: مرنا بما تشاء يا ملك، فإننا نريد لأمتنا أكثر مما نريد لأنفسنا من الخير!

قال الملك: قد عرفت معرفة اليقين أنَّ في غرب هذا المحيط أرضًا أخرىٰ، لم يصل إليها من قبلُ أحدٌ من قومنا، وإنِّي لآمل أن تسبقوا إليها فتملكوها، لتجعلوا خيرها قسمةً بينكم وبين قومكم، فتسعدوا ويسعد بكم قومكم.

قالوا: نذهب يا ملك حيث تشاء، لقومنا ولك كل الخير والنعمة.

فجهز ملك "مالي" بضع مئات من السفن واختار لها البحارة من اكفأ الرجال وأعظمهم همةً وأقواهم عزيمةً، وزودهم بما يكفيهم من الطعام والشراب عدة أشهر؛ ثم أمرهم بالذهاب في المحيط الأطلسي غربًا، لا يتجهون يمينًا ولا يتجهون شمالًا، حتىٰ يبلغوا تلك الأرض، ثم يعودوا إليه ليخبروه بما رأوا...

وكان يوم وداعهم يومًا عظيمًا، احتشد له الجموع من شعب مالي، يدعون لهم بالتوفيق والسلامة، ويرجون لهم ولأنفسهم الخير من وراء هذه الرحلة التي لم يرحلها من قبلهم أحد...

وأقلعت السفن متجهةً إلىٰ الغرب، كما رسم الملك

وعاد المودعون إلىٰ بيوتهم وفي رأس كل منهم خيال، وعلىٰ لسانه دعاء، وفي قلبه قلق...

ومضىٰ أسبوع وراء أسبوع، وشهر وراء شهر، ولم ترجع سفينة من السفن، ولا رجل من الرجال، وانقطعت أخبارهم فلا يدرىٰ أحد أين بلغوا ولا ماذا جرىٰ لهم؛ ولكن ملك مالي لم ييأس، فقد كان يقدِّر أن الطريق طويل، ولا بد أن يمضىٰ زمان قبل أن يصل رجاله إلىٰ تلك الأرض في غرب المحيط، فيدرسوها ويعرفوها تمام المعرفة؛ ثم لابد أن يمضىٰ زمان آخر قبل أن يُعِدُّوا عُدتهم للرجوع، ويقطعوا ذلك الطريق الطويل مرةً ثانيةً عائدين إلىٰ بلادهم...

ولم يكن ملك مالي يخشىٰ علىٰ رجاله أن يصيبهم شر، أو أن يتعرضوا لأذىٰ، فقد كان يعرف أنهم جميعًا من ذوىٰ القوة والشجاعة، ومعهم من الزاد ما يكفيهم عدة أشهر، ولهم من العقل والحكمة ما ينجِّيهم من كل خطر قد يتعرضون له في أثناء هذه الرحلة الطويلة الشاقة....

لذلك لم ييأس الملك، ولم ينفد صبرُه لطول غيابهم وانقطاع أخبارهم...

ومضت بضعة أشهر، وأوشك عام أن ينتهي؛ ثم عادت

سفينة واحدة عليها رجل واحد، فقصد من فوره إلىٰ قصر الملك...

وكان الملك جالسًا بين وزرائه وحاشيته، حين استأذن عليه البحار العائد من الرحلة، فأذن له....

فلما مثل بين يدىٰ الملك سأله: أخبرني عن شأنك وشأن أصحابك: ماذا جرىٰ لك ولهم؟

هل نجحتم فيما حاولتم؟

وهل وصلتم إلىٰ الأرض؟

ولماذا عدت دونهم؟

قال الرجل حزينًا: عظَّم الله أجرك يا مولاي وعوضك خيرًا مما فقدت!

قال الملك قلقًا: أخبرني ماذا حدث؟

هل اعترضكم لصوص البحر فقاتلوكم واستولوا علىٰ متاعكم وسفنكم؟

هل جرفهم التيار فابتعدوا عنك وابتعدت عنهم فآثرت أن تعود دونهم وحيدًا؟

هل طاب لهم المقام في الأرض التي كشفوها فلم يرض أحد منهم أن يعود غيرك؟

هل افترستهم وحوش تلك البرية ونجوت دونهم بجلدك؟

قال الرجل وهو مطرقٌ برأسه من شدة الحزن: لم يكن شيء من ذلك يا مولاي، وما كان لصوص البحر ولا وحوش البر ليستطيعوا أي يغلبونا علىٰ أمرنا، وما كان لشيء من متاع الحياة أن يغلبنا علىٰ حب وطننا وقومنا؛ وقد كنا موفقين في الرحلة حتىٰ طاب لنا الأمل في الوصول إلىٰ الأرض التي نطلبها؛ ولكنا أصبحنا ذات يوم، فإذا تيار من تيارات البحر يجذبنا بشدة، منحدرًا بنا إلىٰ حيث لا ندرىٰ، فحاولنا أن نقف السفن عن الاندفاع في ذلك التيار، ولكننا لم نستطع، كأنما يجذبنا مغناطيس قوىٰ فيهوىٰ بنا إلىٰ منحدر مائل كالشلال إلىٰ قاع عميق كأنه قاع الجب، فاندفعت فيه السفن بعضها وراء بعض كأنها مترابطة بسلاسل من الحديد فلا تستطيع الرجوع، وابتلعها جميعًا جوف المحيط...

وكانت سفينتي وراء السفن كلها، فحولت دفتها إلىٰ اتجاه آخر قبل أن تدخل في مجال ذلك التيار الذي يجذب

السفن؛ فنجوت وحدي، وغابت كل السفن في قاع البحر، وهلك كل من كان عليها من الرجال والمتاع والزاد؛ وقد كافحتُ طويلًا في طريق العودة، حتىٰ بلغتُ الشاطئ عائدًا لأحمل إلىٰ مولاي نبأ هذه الفاجعة!

أطرق الملك برهةً مفكِّرًا، ثم رفع رأسه وهو يقول كأنما يخاطب نفسه: ذهبوا لاكتشاف الأرض الجديدة في غرب المحيط فلم يعودوا... ولا بد أن يذهب آخرون غيرهم لاكتشافها ثم يعودوا ظافرين؛ فلا تمنعنا هذه الكارثة التي نزلت بنا عن محاولة جديدة، لترتفع راية العرب في غرب المحيط، كما ارتفعت في كل مكان من شرق المحيط.

ثم عاد الملك إلىٰ الإطراق والفكر؛ فلما رفع رأسه بعد لحظات، رأي العيون معلقةً به، وعلىٰ كل شفة كلام....

فالتفت إلىٰ الرجل الذي نجا من كارثة البحر فقال له: عد إلىٰ أهلك وانتظر دعوتي!

ثم أمر بعض غلمانه أن يحملوا إليه في داره مالًا وثيابًا ومتاعًا، وعاد إلىٰ وزرائه ومستشارية يشاورهم ويستمع إلىٰ مشورتهم...

وكان الأمير موسىٰ بن أبىٰ بكر من أحكم أصحاب

الملك رأيًا وأعظمهم فكرًا؛ فابتدأ قائلًا:

لقد حاولت يا مولاي محاولةً عظيمةً يكتب الله لك ثوابها؛ وقد فهمتُ من بعض ما سمعت من حديث مولاي أنه يريد أن يحاول محاولةً ثانيةً يرجو أن تنتهي بتوفيق الله إلىٰ الخير؛ ولكني أخشىٰ أن تكون نتيجة المحاولة الثانية مثل نتيجة المحاولة الأولىٰ؛ فإن البحر غدَّار، ولسنا نعرف من أسراره إلا القليل؛ وقد فقدنا أعظم بحارتنا كفايةً وخبرةً وشجاعة؛ فهيهات أن نجد طبقةً أخرىٰ من البحارة في مثل كفايتهم وخبرتهم؛ ولا بد أن تَذيع بين الناس أخبارُ الفاجعة التي أصابتنا في أسطولنا وفي عتادنا وفي بحارتنا، فيجبن الناسُ وتضعف هممهم فلا تجد من الشعب من يجرؤ علىٰ الاشتراك في مثل تلك التجربة القاسية مرةً أخرىٰ!

قال الملك: إنني لا أرىٰ رأيك يا أمير، فإنَّ إخفاق محاولة لا يجوز أن يكون سببًا إلىٰ اليأس، بل لعله أن يكون سببًا إلىٰ السعي لاستكمال أسباب النجاح في محاولةٍ أخرىٰ؛ فإن التجارب القاسية هي التي تعلم، أما الانتصارات السهلة فإنها أخطر من بعض الهزائم، لأنها تعين علىٰ الكسل وتدعو إلىٰ النوم!

قال الأمير: صدقت ونطقت بالحكمة يا مولاي، ولكني أخشىٰ أن يكون أثرُ هذه التجربة الأليمة في نفوس الناس غير ما تظن يا مولاي، فلا تجد منهم من يتطوع ليموت غريقًا في قاع بحر الظلمات!

فرفع الملك صوته قائلًا: أنا أتطوع.. فهل يأبىٰ الشجعان من شعب مالي أن يشاركوني في المغامرة، لنرفع راية العرب في غرب المحيط؟

قال الأمير: ولكن الشعب يا مولاي لا يرضىٰ أن يتعرض مَلِكُه المحبوب لنتائج هذه المخاطرة!

قال الملك: لا بد من تنفيذ ما اعتزمته؛ وستكون أنت نائبي علىٰ عرش مالي، حتىٰ أعود مُظفَّرًا إن شاء الله....

وكان ذلك في القرن الثالث عشر.

٤

المحاولة العربية الثانية

أعـد ملـك السـودان الغربـي عدتـه للرحلـة في المحـيط الأطلسي، يحاول أن يصل في غرب المحيط إلىٰ الأرض التي لم يصل إليها أحد قبله...

وقد كان الملك يعلم أن رحلته هـذه محفوفة بالمخـاطر، وقد رأىٰ بعينيه وسمع بأذنيه ماذا كانت عاقبة المحاولة الأولىٰ التي حاولها لهذه الغاية في ذلـك الطريـق، ولكنه لـم يبـال بكـل ذلك، وأخذ يتأهب لتلك الرحلة العجيبة المجهولة...

وكان يراود الملك شكٌ فيما سمع من الأنبـاء عـن مصير الذين أرسلهم في الرحلة الأولىٰ، فليس من المعقـول أن تغـرق جميع السفن ويهلك جميع الرجال فلا ينجو إلا سفينةٌ واحـدة عليها رجل واحد.

وكان يقول لنفسه: ربما طمعوا في السفن ومـا تحمـل مـن زاد ومتاع، فاغتصبوها لأنفسهم وفروا...

ربما كشفوا أرضًا جديدةً كثيرة الخيرات والثمـرات، فطـاب لهم المقام، ورأوا أن يستقلوا بها، ويعيشوا فيها حكامًا وسادة!

من أجل هذه الخواطر التي كانت تراود عقل الملك لم يغلبه اليأس علىٰ إرادته، فتهيأ لرحلته تمام التهيؤ، وأعد لها كل ما يلزم من الزاد والعتاد، ومن المتاع والرجال؛ وجهَّز ألفي سفينة لتبحر من شواطئ مالي إلىٰ الغرب، لاكتشاف تلك الأرض الجديدة، أو للوصول إلىٰ الهند عن طريقٍ جديد.

وتطوع آلافٌ من الشبان والرجال وطلاب المغامرة وعشاق البحر ليصحبوا الملك في رحلته إلىٰ غرب المحيط...

وكانت شجاعة الملك وقوة قلبه واتساع أمله في الوصول إلىٰ الأرض الجديدة، سببًا لزيادة المتطوعين وحماسة الشعب.

وحان الموعد المحدد لبدء الرحلة فجمع الملك أعضاء أسرته وأمراء مملكته، فأوصاهم بالرعية والنظر في مصالحها، واختار الأمير موسىٰ بن أبىٰ بكر ليكون نائبًا عنه في تدبير شئون المملكة في أثناء غيابه، وطلب إليهم أن يحلفوا علىٰ طاعته والولاء له، فلما حلفوا قال لهم الآن أذهب مطمئنًّا إلىٰ غايتي، فإن عدت موفقًا منصورًا فهو توفيق الله ونصره، وإن هلكت فالعرش من بعدىٰ للأمير موسىٰ...

ثم دعا له ولهم بالتوفيق والسداد في تدبير شؤن المملكة، وولىٰ وجهه نحو الميناء متوكلًا علىٰ الله، والشعب من ورائه

يدعوا له بالتوفيق والنصر...

وأبحرت السفن بما عليها ومن عليها من الزاد والمتاع والرجال متجهةً إلىٰ الغرب...

وظلَّت جموع الشعب واقفةً علىٰ الشاطئ نصف يوم، حتىٰ غابت أشرعة السفن عن العيون في عرض المحيط، فعاد كلٌّ إلىٰ داره وهو يدعو الله لنجاح هذه المغامرة...

وتوالت الأسابيع أسبوعًا وراء أسبوع، وترادفت الأشهرُ شهرًا وراء شهر، والأمير موسىٰ علىٰ عرش السودان الغربي نائبًا عن الملك الغائب في رحلته، والشعب في قلق علىٰ مَلِكه، لا يدرىٰ أيعود من رحلته موفقًا أم ينكص علىٰ عقبيه راجعًا رجوع اليائس...

ومضىٰ عام كامل ولم يسمع أحد خبرًا عن الملك الغائب، ثم توالت الأشهر بعد العام ولم يعد الملك، ولم يأت

منه رسولٌ ولا خبر، ثم تم عامٌ ثانٍ وما يزال الشعب في حيرته وقلقه، والأمير موسىٰ بن أبىٰ بكر جالس علىٰ عرش مالي.

وأخذ أهل مالي يتساءلون بينهم: فيم غيابُ الملك إن كان قد وصل إلىٰ أرض جديدة في غرب المحيط، إلا أن تكون قد حلت به وبمن معه كارثة، فابتلعهم المحيط وطواهم في جوفه العميق الواسع؟

وبدأ الشك يراود نفوس الناس، واستولىٰ القلق علىٰ أهالي الرجال الذين صحبوا الملك في رحلته!

وتوالت الأيام والأسابيع والأشهر، وأوشك أن يتم عام ثالث منذ خرج الملك في تلك الرحلة، فأيقن الناس أن الملك وأصحابه قد هلكوا، وأن المحاولة الثانية لاكتشاف الأرض الجديدة قد أخفقت كما أخفقت المحاولة الأولىٰ، وظل قليل من الشعب علىٰ أمل يتضاءل بمرور الأيام..

وخاف الأمير موسىٰ أن تتبلبل خواطر الشعب فيختل نظامه، فأذاع في طول البلاد وعرضها أن الملك قد ذهب ولن يعود..

وبايع الأمراء والرؤساء وأصحاب الرأي الأمير موسىٰ بن أبىٰ بكر، ملكًا علىٰ السودان الغربي، خلَفًا للملك الراحل...

وتحمس جماعة من الشبان فزعموا أن الملك الغائب لم يمت، وخمنوا أنه وصل إلىٰ الأرض الجديدة ثم انقطعت أسبابه فلم يستطع العودة؛ وكبر هذا الوهم في نفوسهم، فأخذوا يتهيَّؤون لمحاولة جديدة يكتشفون بها الحقيقة، أو يكتشفون الأرض الجديدة!

وخاف الملك موسىٰ أن يقدم هؤلاء الشبان علىٰ مغامرة جديدة يهلكون بها كما هلك مَن قبلَهم، وخاف في الوقت نفسه أن تسبب هذه الأوهام انشقاقًا في البلاد، فيزعم بعض الشعب أنهم أتباع الملك الراحل، ويزعم غيرهم أنهم أتباع الملك الجديد، وتتفرق البلاد أحزابًا وشيعًا؛ فأصدر تحذيرًا عامًّا إلىٰ الأهالي، يمنعهم من ركوب البحر، فأطاع الناس، وأيقنوا جميعًا أن الملك الراحل قد هلك فلن يعود!

وكف الناس في السودان الغربي عن الخوض في هذا الحديث، ولكنَّ العرب في بلاد أخرىٰ لم يكفوا، فمازال في كل

بلد من بلاد المغرب، أو من بلاد الأندلس، جماعة من أهل العلم، أو من عشاق المغامرة، يفكرون في إمكان الوصول إلىٰ الأرض الجديدة في غرب المحيط...

٥

مغامرون من لشبونة

وكان في مدينة " لشبونة " من بلاد الأندلس العربية (وهي الآن عاصمة البرتغال)، بضعة من الشباب، ذوو همة وحمية وعزم شديد؛ وكانوا ثمانية، كلهم أبناء عم، فاتفقوا علىٰ محاولة اقتحام المحيط الأطلسي، إلىٰ أمريكا...

وكانت مدينة لشبونة ميناءً كبيرًا علىٰ المحيط الأطلسي، فلم يجدوا مشقةً في الحصول علىٰ سفينة تحملهم إلىٰ حيث يريدون، فشحنوها بالماء والزاد والمتاع، وهيَّؤوا أنفسهم لرحلة طويلة في بحر الظلمات...

وعلم أهل مدينة لشبونة بما عزم عليه هؤلاء الشباب، كما علم به أهل الأندلس جميعًا، فقالوا:

هؤلاء شباب مغرورون، قد خدعهم الشيطان وزين لهم

الوهم الباطل ما لا يكمن تحقيقه، فإنَّ بحر الظلمات ليس له آخرٌ يعرف، ولا طريق يوصف، وإنهم بهذه المحاولة الطائشة يُعرِّضون أرواحهم للهلاك ونفوسهم للتلف، كما هلك غيرهم من المغامرين في هذا البحر المخيف!

ولكن الشبان الثمانية سخروا من قولهم، ولم يستمعوا لنصيحة أحد، وأصروا علىٰ المضي في الرحلة التي أعدوا لها كل ما يلزم وأقاموا أيامًا بميناء لشبونة يترقبون هبوب الريح الشرقية، لتدفع سفينتهم علىٰ ظهور الموج إلىٰ غرب المحيط؛ فقد حفظوا من دروس الجغرافيا أنَّ رياحًا شرقيةً تهب علىٰ المحيط في موسم معروف في كل سنة، فتسهل علىٰ السفن رحلتها إلىٰ الغرب؛ وأن رياحًا أخرىٰ غربيةً تهب في موسم معروف كذلك، يمكن أن توجه السفن من غرب المحيط إلىٰ الشرق؛ وعلىٰ أساس ما عرفوا من ذلك رسموا خطتهم...

ولم يكن لأهل مدينة لشبونة حديث يسمرون به في تلك الليالي، من القرن الثالث عشر للميلاد، إلا حديث أولئك الشبان الثمانية، الذين يستعدون منذ أسابيع للإبحار من ميناء لشبونة علىٰ ظهر سفينة شراعية، إلىٰ أرض مجهولة في غرب المحيط الأطلسي...

وكان أكثر الناس يصفونهم بالغرور، وبالطيش والحماقة، ولكنهم لم يكونوا يبالون بما يصفهم به الناس؛ فقد كانوا علىٰ إيمان عميق بأن الأرض كرة، كما تعلموا في المدارس العربية، وما دام الأمر كذلك فلا بد أن يكون في غرب هذا المحيط أرض أخرىٰ، ولابد أن يصلوا إليها ويكتشفوها، ويُعلِّموا أهلها لسان العرب، ودين العرب!

وذات يوم كان بعض أهل المدينة جالسين في المسجد كعادتهم بعد كل صلاة، فأخذوا يتحدثون في شأن هؤلاء الشبان الثمانية، وما اعتزموه من أمر الرحلة في المحيط، فبينما هم في الحديث إذ أقبل علىٰ المسجد للصلاة شاب من هؤلاء الشبان؛ فلما عرف موضوع حديثهم، استأذنهم في الكلام فأذنوا له فقال لهم: أنتم تصفوننا بالغرور، وبالطيش والحماقة لأننا نحاول الوصول إلىٰ الأرض الجديدة في غرب المحيط؛ فلماذا تسمون هذا غرورًا وطيشًا وحماقة؟ ماذا يمنع أن يكون ما تخيلناه صحيحًا، وأن تكون هناك أرض جديدة تنتظر من يكتشفها، ويعربها، ويُهدىٰ إلىٰ أهلها العلم والنور والحضارة؟

قال أحد الجالسين معترضًا: لقد كنا ننكر عليكم أن تزعموا أنَّ هناك أرضًا، فهل تزيدون فتزعمون أنَّ في تلك

الأرض ناسًا، وأن هؤلاء الناس ينتظرون من يصل إليهم ليهديهم ويعلمهم؟

قال الفتىٰ مؤكدًا قوله: إننا لا نزعم هذا، بل نعتقده ونؤمن به، وعندنا علىٰ ذلك أكثر من برهان...

أرهف الجالسون آذانهم يستمعون إلىٰ حديث الفتىٰ واسترسل الفتىٰ في حديثه قائلًا: وأول برهان علىٰ ذلك أن الأمواج المتدافعة التي تأتينا من غرب المحيط وتلاطم الشواطئ الغربية لبلادنا، تأتىٰ في كثير من الأحيان وهي تحمل جذوع أشجار برِّيَّة ضخمة، وجلود حيوانات، وآثارًا أخرىٰ كثيرة، تدل علىٰ أنها قادمة من أرض ذات شجر وحيوان وناس!...

... وبرهان آخر، هو هذه الأسراب من الطير التي تأتىٰ إلىٰ بلادنا كل عام في مواسم معلومة، قادمةً من الغرب، ثم ترحل عن بلادنا في مواسم معلومة كذلك، طائرةً إلىٰ الغرب: من أين جاءت؟ وإلىٰ أين تذهب؟ إن لم يكن في غرب هذا المحيط أرض وشجر وحيوان وناس؟...

... وبرهان ثالث.....

فقاطعه أحد الجالسين ساخرًا: ولكن ملك السودان الغربي

قد سبقكم في الوصول إلىٰ تلك الأرض، فأين مقامه منها إن كان لها وجود!

قال الفتىٰ بهدوء: إن ملك السودان الغربي قد حاول محاولتين اثنتين، أما أولاهما فانتهت بغرق سفنه وبحارته جميعًا إلا سفينةً واحدةً وبحارًا واحدًا؛ وأما المحاولة الأخرىٰ فإننا لم نسمع عنها نبأً بعد، فإن كنت تقصد السخرية يا سيدىٰ، فإنَّ غرق السفن في المحاولة الأولىٰ، وانقطاع الأخبار عن المحاولة الثانية، ليس دليلًا علىٰ عدم وجود أرض في غرب هذا المحيط؛ إنَّ بعض سفننا تحاول أن تقطع البحر المتوسط بين الأندلس وسبتة في المغرب، أو بين الأندلس والإسكندرية في مصر، فتغرق؛ فهل يكون غرقُها دليلًا علىٰ أن سبتة والإسكندرية لا وجود لهما في جنوب البحر المتوسط؟

قال الرجل: ولكن، علىٰ أي شيءٍ يدل انقطاع أخبار الملك بعد ذهابه في المحاولة الثانية؟

قال الفتىٰ: لعله وصل إلىٰ تلك الأرض ولم يستطع الرجوع، أو لعل الإقامة طابت له في الأرض الجديدة!

قال الرجل ساخرًا: أو لعله طاب له القرار في جوف المحيط!

قال الفتىٰ وهو يتهيأ للانصراف: ليس من حقي ولا من حقكم أن نحكم علىٰ غائب!

ثم تركهم فيما كانوا فيه من الحديث ومضىٰ إلىٰ غايته...

بدأ هبوب الرياح الشرقية في موسمها، وحان الوقت الملائم لبدء الرحلة، فأقلع الشبان الثمانية بسفينتهم من ميناء لشبونة متجهين إلىٰ الغرب مع التيار، يحاولون الوصول إلىٰ الأرض الجديدة في غرب المحيط؛ وأهل لشبونة من ورائهم يقولون في أسف: مغرورون! مغرورون!

وظل الناس يذكرونهم أيامًا ثم نسوهم؛ ولكنَّ أهل شارعهم في لشبونة لم ينسوهم، وسموا الشارع باسمهم سموه: شارع الفتية المغرورين!

وظل هذا اسمًا للشارع الذي كانوا يسكنون فيه من بعد، مئاتٍ من السنين...

ولكن ماذا كانت آخرة هذه المحاولة التي حاولها أولئك "الفتية المغرورون" من لشبونة، في القرن الثالث عشر؟....

٦

جزيرة الغنم !

إنَّ التاريخ لا يُهمِل، ولا يُزَيِّف؛ وقد ذكر التاريخ أن ثمانية من فتيان العرب قد حاولوا في القرن الثالث عشر أن يكتشفوا أمريكا، قبل أن يكتشفها خريستوف كولمبس بمئتي سنة، فأبحروا من لشبونة في سفينة شراعية واتجهوا بها غربًا، اثني عشر يوما، ثم حولوا وجهتهم إلىٰ الجنوب الغربي، اثني عشر يومًا أخرىٰ، ثم لاحت لهم جزيرة علىٰ بعد، فاتجهوا إليها، وألقوا مراسيهم علىٰ سواحلها، ووطئوا الأرض الجديدة بأقدامهم...

كان أهل لشبونة يسمونهم الفتية المغرورين، لأنهم لم يكونوا مؤمنين بأنَّ في غرب المحيط الأطلسي أرضًا وبأنَّ هؤلاء الفتية يستطيعون أن يصلوا إلىٰ تلك الأرض؛ أما الآن وقد وصل الفتية إلىٰ هذه الجزيرة ووضعوا أقدامهم علىٰ أرضها فما أجدرهم بأن يصفوهم بأنهم المستكشفون الرواد!

صاح واحد من الفتية الثمانية: ما هذا؟ إنني لا أرىٰ أحدًا من الناس في هذه الجزيرة!

قال أصحابه: ما لنا وللناس؟ ألم نكتشف أرضًا ذات

أشجار وثمار وحيوان، وكان الجهال من أهل لشبونة لا يظنون أنَّ وراء المحيط أرضًا؟ فقد نجحت محاولتنا وانتصر رأينا علىٰ كل حال!

وأخذوا يجوسون خلال تلك الجزيرة التي وصلوا إليها، فإذا أعشاب برية نامية، وأشجار ذات ثمار غريبة، وعيون ماء جارية؛ ولكن الذي لفت نظرهم أكثر من غيرة، هو كثرة الغنم في الجزيرة، ففي كل مكان معشب قطيع سارح، بين كباش ذات قرون، ونعاج ذات ألبان، وحملان صغيرة لا تعرف النطاح، وكلها سارحة بلا راع في أمان واطمئنان، لا تخشىٰ عصا الراعي ولا سكين الجزار ولا عدوان الذئب!

وشي آخر لفت نظر الفتيان في تلك الجزيرة، وهو كثرة أشجار التين علىٰ حوافي عيونها الجارية.....

وأحس الفتيان بالجوع، فاصطادوا حَمَلًا، وذبحوه

وسلخوه، وغسلوه في ماء العين، ثم أوقدوا نارًا وشووه وتهيؤوا للأكل؛ ولكنهم لم يكادوا يضعون أول مضغة منه في أفواههم حتىٰ لفظوها كارهين، فقد كان لحمها مرًّا كريه المذاق لا يسيغه أحد!

قال واحد منهم من أجل هذا الطعم الكريه لم تخش غنم هذه الجزيرة سكين الجزار!

قال آخر: ليس في اللحم حلو ومر، ولكن المرعىٰ هو السبب، فلو طاب مرعاها لطاب لحمها؛ ألم تر الذبيحة التي يكون من طعامها نبات الشيح، يكون في لحمها رائحة الشيح، والتي في مرعاها ريحان، يكون في لحمها عطر الريحان!

قال ثالث: فإن كان لحمها مرًّا كريه المذاق، فإن لنا في جلدها وصوفها منافع أخرىٰ...

فوافقه أصحابه علىٰ رأيه، وذبحوا بعض كباش، وسلخوا عنها فراءها فحملوها معهم إلىٰ السفينة، ثم استأنفوا رحلتهم في البحر، يبحثون عن أرض أخرىٰ.....

لله دركم يا فتيان العرب!

لقد وصلتم إلىٰ مكان من الأرض الجديدة في غرب

المحيط لم يصل إليه قبلكم أحد، فإلىٰ الأمام، إلىٰ الأمام حتىٰ تبلغوا آخر الأرض!

واستمروا سائرين في المحيط اثني عشر يومًا أخرىٰ، ووجهتهم إلىٰ الجنوب...

الآن لا يسخر منهم أحد، لقد تحقق بعض أملهم ولا بد أن يتحقق الباقي...

وهتف هاتف منهم انظروا...

ونظروا جميعًا إلىٰ حيث أشار صاحبهم، فإذا أرض أخرىٰ تلوح لهم من بعيد...

- وافرحتاه!...

- حول الدفة يا فتىٰ حتىٰ نرسي السفينةَ علىٰ هذه الأرض الجديدة...

وقال كبيرهم وهو يتوجه بمنظاره نحو تلك الأرض التي تلوح لهم من بعيد:

دققوا النظر يا بنىٰ العم، فإنِّي أرىٰ علىٰ تلك الأرض بيوتًا مبنية، وأشجارًا منتظمةً في صفوف، كأنها حدائق أو بساتين، فليست أرضها هملًا مثل أرض جزيرة الغنم!

قال فتًى آخر منهم وعينه على منظاره: إن فيها ناسًا وعمرانًا، وحقولًا مزروعة!

قال ثالث: يا فرحةً لم تتم... فإن ناسًا قبلنا قد سبقونا إلى اكتشاف تلك الأرض، وعمروها، واتخذوها دار إقامة!

قال كبيرهم: وماذا يحملكم على الظن بأن ناسًا قبلكم قد سبقوكم إلى اكتشاف هذه الأرض؟ لماذا لا تقدِّرون أن هؤلاء الناس هم أصحاب البلاد الأصليون، ولم يسبقكم إلى الوصول إليهم سابق؟

قال أحدهم: ماذا تعنى يا ابن العم؟ وكيف يدخل في عقلك أنَّ ناسًا مثلنا من بنى آدم يعيشون في هذه الأرض المجهولة، إلا إذا كانوا قادمين مثلنا من المشرق؟

قال آخر: الحق ما تقول يا أخي، فإذا كان سكان هذه الأرض مثلنا من بنى آدم، فلابد أنهم قد قدموا إليها قبلنا من البلاد التي كان يعيش فيها أبونا آدم!

قال ثالث: وإذا لم يكونوا من بنى آدم فلابد أنهم من الوحوش لا من البشر، وإني لأخشى أن يكونوا كذلك فنتعرض في هذه الأرض لشر كثير!....

كان الفتية العرب يتناقشون هذه المناقشة والسفينة تقترب بهم شيئًا فشيئًا من تلك الأرض، ومناظيرهم علىٰ عيونهم تكشف لهم الأرض وما عليها من بعيد، ولكنهم في الوقت نفسه كانوا غافلين عن منظرٍ آخر قريب، لو أنهم رأوه لغيروا خطتهم أو حولوا الدفة لينتظروا بعيدًا حتىٰ يدبروا أمرهم...

ذلك أن بضعة زوارق صغيرة، في كل زورق منها بضعة رجال، كانت تقترب بحذر وخفة من سفينتهم الضخمة وهم علىٰ ظهر السفينة لا يرون إلا ما بعد عن أعينهم، قد شغلتهم المناقشة عن كل شيء، والخطر يقترب منهم....

وكان ركاب تلك الزوارق من سكان تلك الأرض، وكانوا قد شاهدوا السفينة من بعيد فركبوا زوارقهم المحفورة من جذوع بعض الأشجار الضخمة، واتجهوا نحو السفينة بخفة وحذر، وقد رأوا أنَّ فيها أعداءً يريدون الإغارة علىٰ أرضهم التي يعيشون علىٰ ظهرها أحرارًا مستقلين...

واقتربت الزوارق من السفينة حتىٰ لاصقتها، فتسلقها الرجال من جوانبها، وركابها غافلون، فما هي إلا لحظات حتىٰ رأي الفتيان الثمانية أنفسهم أسرىٰ علىٰ ظهر سفينتهم في أيدىٰ أولئك الذين كانوا راكبين الزوارق، فلم يجدوا فائدةً من المقاومة وقد هوجموا علىٰ غفلة، فاستسلموا.....

حينذاك أقبل عليهم أولئك الرجال فقيدوهم بالحبال، ومضوا بهم علىٰ ظهر سفينتهم إلىٰ المرسىٰ فربطوا السفينة في بعض صخور الشاطئ، ثم قادوهم مقيدين في حبالهم والحراس يحيطون بهم، حتىٰ وصلوا بهم إلىٰ دار مبنية فحبسوهم في إحدىٰ حجراتها ثم أغلقوا عليهم بابها ومضوا...

٧

الفتيان في الأسر

ظل الفتيان محبوسين في تلك الحجرة وقتًا، لا يعرفون ماذا يراد بهم، ولا يدرون شيئًا من أمر أولئك الرجال الذين ساقوهم مقيدين إلىٰ ذلك الحبس، ولا لماذا اعتقلوهم وحبسوهم في هذه الحجرة المغلقة...

وبدأت المخاوف تساور نفوس الفتيان، فقال أحدهم إنِّي لأخشىٰ أن يكون أهل هذه الأرض قد أساءوا الظن بنا فحسبونا من أعدائهم، فإن كان ذلك ظنهم بنا، فلا بد أن ينالنا منهم سوء، وإنَّ شر ما أخافه أن يتركونا محبوسين في هذه الحجرة حتىٰ نموت ظمأً وجوعًا!

قال آخر: ليتنا اكتفينا من رحلتنا باكتشاف جزيرة الغنم، ثم عدنا بعد ذلك إلىٰ بلادنا سالمين، ليعرف الذين كانوا يصفوننا بالغرور والطيش والحماقة من جهَّال لشبونة، أننا كنا علىٰ الحق وكانوا علىٰ الباطل، حين اعتقدنا أنَّ في غرب المحيط الأطلسي أرضًا أخرىٰ... ولكننا لم نكتف بذلك النجاح، وطمعنا في مزيد من النجاح، فرمينا بأنفسنا في هذا الشر، وأخشىٰ أن ينتهي أمرنا إلىٰ الهلاك ولا يدرىٰ بنا أحد!

قال كبيرهم غاضبًا: ماذا أسمع منكم يا بني العم؟ أكنتم تظنون أنَّ رحلتنا لاكتشاف أرضٍ جديدة في غرب المحيط

رحلة سعيدة ممتعة من كل الوجوه، ليس فيها مشقات ولا متاعب؟ لقد أحرزنا من النجاح فوق ما كنا ننتظر، بالعزم والشجاعة وحسن التدبير، ولم نزل نملك من الحكمة وحسن التصرف ما يكفل لنا الخلاص من كل ما قد يعترضنا من عقبات، وما ننساق إليه من مآزق حرجة، فصبرًا يا بني العم حتىٰ نتدبر أمرنا ونعرف علىٰ وجه اليقين ماذا يراد بنا، ثم نرسم خطتنا بعد ذلك بعزم وشجاعة...

ولم يلبث باب الحجرة أن انفتح، ودخل رجل أشقر مليح الوجه، حليق اللحية، مسترسل شعر الرأس، تتبعه فتاة ذات جمال، قد حملت علىٰ رأسها مائدةً مغطاة، فوضعتها بين أيدي الفتيان ثم انصرفت صامتة، ولحق بها الرجل الأشقر صامتًا كذلك، فأُغلق باب الحجرة كما كان، وبقيت المائدة

بما عليها بين أيدىٰ الفتيان فتقدم أحدُهم فرفع عنها غطاءها فإذا طعامٌ شهي وشرابٌ مبرَّد، في أوعيةٍ نظيفة...

وكان الجوع والظمأ قد بلغا من الفتيان مبلغًا عظيمًا فأقبلوا علىٰ الطعام مستبشرين، قد انقشع عنهم ما كان يساور نفوسهم من الخوف والقلق...

قال كبيرهم ضاحكًا وهو يرفع إلىٰ فمه بعض ما بين يديه من الطعام: كلوا يا بني العم ولا تخشوا أن تموتوا جوعًا، فإنكم في ضيافة آدميين مثلكم، لا يريدون بكم شرًا ولكنهم يخشون منكم أن تنالوهم بالشر!

ومضت ساعة، ثم عاد الرجل الأشقر ففتح الباب، وتبعته الفتاة فحملت بقية الطعام، ثم انصرفا صامتين كما دخلا صامتين، وأغلقا وراءهما الباب...

ثم حل المساء، فحملت إليهم الفتاة مائدةً أخرىٰ لعشائهم، وسوَّت لكل منهم فراشًا للنوم، والرجل الأشقر يشير عليها بما تفعل، ثم انصرفت وانصرف الرجل، وتركا الفتيان في خلوتهم لينام وا، ولكنهم لم يناموا، فقد كانت هذه المعاملة الكريمة الصامتة، مدار أحاديث مسترسلة طويلة بين الفتيان، فلم تغمض جفونهم إلا بعد وقت من الليل...

ثم أشرق الصبح وهم محبوسون في تلك الحجرة المغلقة، لا يعرفون ماذا يراد بهم...

ومضت أيام وهم علىٰ هذا الحال، لا يسألهم عن خبرهم أحد، ولا يسألون عن سبب اعتقالهم أحدًا...

إن الرجل الأشقر الحليق الذي يحرس بابهم لا يتحدث إليهم بشيء حين يدخل إليهم ولا حين يخرج؛ وإن الفتاة الصامتة التي تحمل إليهم الطعام في مواعيد الطعام، وتسوىٰ لهم فراش النوم حين يحين موعد النوم لا تتحدث إليهم بشيء حين تدخل ولا حين تخرج...

معاملة كريمة عجيبة، ولكن ذلك الصمت المطبق أعجب منها وأغرب...

إلىٰ متىٰ يظلون محبوسين في هذه الحجرة، يأكلون ويشربون وينامون ثم يستيقظون؛ لا يكلمهم أحد ولا يتكلمون إلىٰ أحد؟

أهو حبس مؤبد، لا آخر له ولا سبب؟

وفجأةً انفتح الباب بهدوء، كما ينفتح كل مرة، ودخل الحارس الأشقر تتبعه الفتاة وقد حملت علىٰ رأسها مائدة

الفطـور؛ ولكـن الفتيـان لـم يـدعوهما يخرجـان كمـا كـانوا يدعونهما كل مرة، فقد وقف كبيرهم فأمسك الحارس من ذراعه برفق وهو يقول له بالعربية: إلىٰ متىٰ نظل في هذا الحبس؟ ولماذا؟

ونظر إليه الحارس صامتًا، ولكنه لم يجبه...

وعاد الفتىٰ يكرر سؤاله: إلىٰ متىٰ؟.... ولماذا؟...

ولكن الحارس والفتاة لم يخرجا عن الصمت بجواب؛ فارتفعت أصوات الشبان جميعًا يسألون مثل سؤال صاحبهم كأنما يهددون الحارس والفتاة بأن يحبسوهما معهم أو يسمعوا منهما جوابا؛ وعرف الرجل مرادهما فنطق، ولكن الفتيان لم يفهموا كلمةً واحدةً مما نطق، فقد كان يتكلم بلغة غريبة لا يعرفها أحد منهم فعرفوا سر صمته وصمت الفتاة، وقال بعضهم لبعض في يأس: إنهما لا يعرفان العربية، فهيهات هيهات أن نفهم شيئًا عن أهل هذه الجزيرة أو يفهموا عنا!

ثم تركوا الحارس والفتاة يخرجان، وانقفل وراءهما الباب...

ومضت ساعة، ولم تعد الفتاة -كعادتها- لترفع بقية الطعام، فخشىٰ الفتيان أن تكون ثورتهم هذه علىٰ الحارس

والفتاة قد أغضبتهما، فلا يدخل لهم بعد ذلك طعام ولا شراب حتىٰ يهلكوا جوعًا؛ ولكنهم -مع ذلك- لم يندموا علىٰ ما فعلوا، فقد كانوا مؤمنين بأنَّ من واجبهم أن يبذلوا محاولةً ليعرفوا عاقبة أمرهم في هذا الحبس العجيب...

أطرق الفتيان جميعًا صامتين وهم يفكرون في حالهم، بين هؤلاء القوم الذين لا يعرفون من لغتهم حرفًا؛ وكاد يغلبهم اليأس علىٰ شجاعتهم، ولكنهم لم يلبثوا أن أحسوا وقع أقدام ثم انفتح الباب ودخل عليهم بضعة رجالٍ شقر الوجوه مثل صاحبهم، محلوقي اللحىٰ مسترسلي الشعور مثله، ثم تقدم واحد من بينهم إلىٰ الفتيان قائلًا بلسان عربي: السلام عليكم...

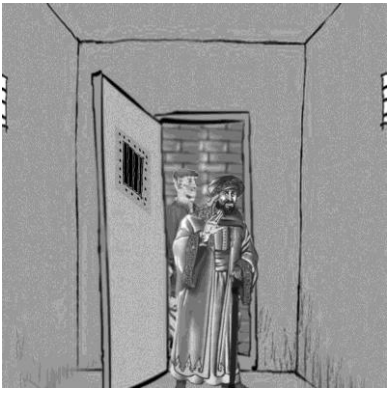

٨

العربي الذي سبقهم..

دهش الفتيان دهشةً عظيمةً حين رأوا رجلًا يلقي إليهم السلام باللغة العربية، في تلك الأرض المجهولة وراء المحيط، وكان ظنُّهم أنه ليس في هذه الأرض من يعرف لغتهم؛ وكيف يقع في ظنِّهم أنَّ أحدًا في هذه الأرض يعرف لغة العرب، وبينهم وبين بلاد العرب هذا المحيط المظلم الذي لم يسلكه إلىٰ الغرب أحد قبلهم؟

لقد كان أهل الأندلس يصفونهم بالغرور والطيش والحماقة لأنهم كانوا يرعمون أنَّ في غرب المحيط الأطلسي أرضًا أخرىٰ؛ فماذا يقولون حين يعلمون أن في تلك الأرض وراء المحيط زراعةً وعمارةً وناسًا يتكلمون باللسان العربي؟

يا للعجب! وكيف وصلت لغة العرب إلىٰ تلك الجزيرة النائية؟ هل جاءها عربي قبل هؤلاء الفتيان فتعلموا منه؟

فكيف....؟ ومتىٰ...؟

دارت هذه الأفكار في رؤوس الفتيان حين سمعوا ذلك الرجل يدخل إليهم فيقول لهم بلسان عربي: السلام عليكم...

فأجابوه بلسان واحد وهم في حيرة ودهشة: عليك السلام ورحمة الله وبركاته...

فالتفت الرجل إلىٰ من وراءه من الرجال، وأشار لهم أن ينصرفوا فأطاعوه ومضوا وتركوه وحده مع الفتيان في الحجرة التي كانت سجنًا لهم منذ أيام...!

فلما خلت الحجرة إلا منهم ومنه، اتجه إليهم قائلًا: أرجو أن تخبروني بإخلاصٍ عن سبب قدومكم إلىٰ هذه الأرض، والبلد الذي جئتم منه، والوسيلة التي وصلتم بها والغاية التي تقصدونها؛ فإنكم -فيما أظن- قادمون من شرق المحيط، وهذه عجيبة من العجائب، فإني لا أعرف أحدًا قبلكم وصل سالمًا إلىٰ هذه الأرض من شرق المحيط!

قال كبير الفتيان: عجبًا! كيف تقول إنك لا تعرف أنَّ أحدًا قبلنا وصل سالمًا من شرق المحيط إلىٰ هذه الأرض،

وأنت تكلمنا بلغتنا؟ فكيف وصلت إليك لغتنا دون أن يصل إلىٰ أرضكم أحد منا؟

فابتسم الرجل وقال:

آه... هذه مسألة أخرىٰ، ولكني حضرت إليكم -بأمر صاحب هذه الأرض- لأسألكم لا لتسألوني؛ فإن أردتم خلاصًا من هذا الأسر فأجيبوني بإخلاص عن كل ما سألتكم...

قال الفتىٰ: سأجيبك يا سيدىٰ عن كل ما سألت، ولكني أرجوك إيضاحًا لبعض الأمر، كي يطمئن قلبي؛ فمن أنت بين أهل هذه الأرض، فإنك -فيما نظن- الرجل الوحيد الذي ينطق العربية بين أولئك الأعاجم، وما نظنك إلا غريبًا طارئًا علىٰ أهل هذه الأرض مثلنا؛ فإن صورتك تختلف عن صورهم!...

فلمعت دمعتان في عيني الرجل، وقال: لست الوحيد الذي يتكلم بالعربية في هذه الأرض؛ فإن معي أربعة نفر يتكلمون بالعربية كما أتكلم، لا أخاطب بهذا اللسان أحدًا غيرهم ولا يخاطبون أحدًا غيري؛ أولئك زوجتي، وابنتاي، وولدي؛ وهم كل أهلي في هذه الأرض؛ أما سائر أهلي فهناك... هناك وراء المحيط، في الشرق البعيد، حيث ودعت

أبي، وأمي، وإخوتي وأخواتي، منذ زمن بعيد، إلىٰ لقاء قريب، ولكننا لم نلتق بعدها، ولن نلتقي أبدًا...

تأثر الفتيان لحديث الرجل، وأيقنوا أنه عربي مثلهم، وصل قبلهم إلىٰ هذه الأرض من شرق المحيط، وخلَّف هنالك أسرته وأهله، ليعيش في هذه الأرض غريبًا، بين قوم لا يتكلمون لغته ولا يفهمون عنه...

ولكن كيف وصل من الشرق إلىٰ هذه الأرض؟ وكيف استطاع أن يعيش بين أهلها، وأن يتحدث بلسانهم، وأن يكون له بينهم زوجة وأولاد؟

هذا هو السؤال الذي خطر علىٰ بال الفتيان حين سمعوا حديثه إليهم، ولكنهم لمحوا الدموع تترقرق في عينيه، فلم يتوجهوا إليه بالسؤال لكيلا يزيدوا شجونه...

ومضت فترة صمت، ثم عاد الرجل إلىٰ الحديث قائلًا:

لقد أخبرتكم عن بعض ما أردتم أن تعرفوا من خبري، فهل لكم أن تجيبوني عن بعض ما سألتكم؟ لأعرف سبب قدومكم إلىٰ هذه الأرض، والبلد الذي قدمتم منه، والوسيلة التي وصلتم بها والغاية التي تقصدونها؛ فإن ملك الجزيرة يريد أن يعرف كل ذلك عنكم، وقد اختارني لمحادثتكم حين عرف

أنكم تتحدثون مثلي باللسان العربي، لأكون ترجمانًا بينه وبينكم، أنقل لكم حديثه وأنقل عنكم.

قال كبير الفتيان:

نحن أبناء عم من أهل لشبونة، بدا لنا أنَّ في غرب المحيط أرضًا مثل أرضنا، فجهزنا هذه السفينة الكبيرة ومضينا بها في المحيط أيامًا وليالي، حتىٰ وصلنا إلىٰ أرضكم، ولكن رجالكم اعتقلونا وحبسونا في هذه الحجرة منذ أيام، قبل أن نعرف شيئًا من خبركم أو تعرفوا شيئًا من خبرنا، ليس بيننا وبينكم عداوة فتأسرونا وتقيدوا حريتنا؛ فاتركونا نذهب إلىٰ حيث نشاء، فإن لنا أهلًا في شرق المحيط ينتظرون عودتنا ويرقبون لقاءنا علىٰ شوق ولهفة!

قال الرجل وهو يهز رأسه في تأثر وقد ازدحمت في عينيه الدموع:

إنَّ لكم أهلًا ينتظرونكم هناك، وليس لي أهل ينتظرونني هنا ولا هناك!

ثم أخفي وجهه بين راحتيه وهو يقول باكيًا:

كل غريب إلىٰ إياب، وغربتي بلا مآب!

فازداد تأثر الفتيان حين رأوا دموع الرجل وسمعوا حديثه، وأقبل عليه كبيرهم يواسيه ويخفف عنه، ثم قال له:

إن لك يا أخانا خبرًا تحاول أن تخفيه عنا؛ فهل لك أن تحدثنا عن خبرك هذا، لعل الحديث أن يخفف عنك بعض ما تجد من الحزن والألم؟

قال الرجل:

نعم يا بني العم، سأحدثكم بخبري لعل الحديث يخفف عني بعض ما أجد ويخفف عنكم كذلك؛ فإني وإياكم غرباء عن وطنٍ وأهل هنالك، في بلدٍ ناءٍ، شرق بحر الظلمات، قدمت منه منذ سنين بعيدة، أحاول بعض ما تحاولون من

أسباب الكشف عن أرض جديدة، ولكن أسبابي تقطعت فلم يبق لي أمل في العودة إلي وطني وأحبابي وأهلي...

٩

الرائد الأول

اعتدل ترجمان الملك في مجلسه، وأخذ يقص قصته علىٰ الفتيان منذ بدأت، ودموعه تتسابق علىٰ خديه، والفتيان يستمعون إليه في تأثرٍ وحزنٍ عميق، قال:

حين كنت شابًّا في عنفواني، لم يكن أحد في "مالي"، من بلاد السودان الغربي، أسعد مني، فقد كنت كبير إخوتي وأخواتي، وكان أبي يؤثرني عليهم جميعًا بالعطف والمحبة، وكان رجلًا واسع الغنىٰ، كثير المال والزرع والضرع...

وحببت إلي النعمة التي كنت أعيش فيها أن أنتفع ببعض أوقات فراغي في الرحلة، شمالًا وجنوبًا وشرقًا؛ ثم حُبب إليَّ أن أحاول الرحلة كذلك في المحيط، لأعرف ما يمكن أن يكون في جزره من غرائب المخلوقات وعجائب الطبيعة.

وفي الوقت الذي كان يراودني فيه هذا الخاطر، كان ملك مالي يفكر في تجهيز حملة من رجاله لاختراق المحيط إلي الغرب فطلبت إلي أبي أن يأذن لي في مرافقة هذه الحملة، لأحقق رغبتي في اكتشاف المجهول؛ ولكن أبي لم يأذن لي، فقد كان يرىٰ في هذه المحاولة مغامرةً غير مأمونة العاقبة، ولكني ألححت

عليه وزدت في الإلحاح حتىٰ ضاق ذرعًا بي....

وكان أبي من جلساء الملك، فرفع إليه أمري، فأراد الملك أن يجامل أبي، وألا يقاوم رغبتي في الوقت نفسه، فطلب إليَّ أن أنتظر حتىٰ تعود الحملةُ الأولىٰ، حتىٰ إذا نجحت في مهمتها ووصلت إلي الأرض المجهولة في غرب المحيط، أذن لي في صحبته إلي تلك الأرض الجديدة؛ فأطعت أمره صاغرًا ولبثت أنتظر...

ولكنَّ الحملة الأولي لم تنجح في مهمتها، ولم تكتشف أرضًا جديدةً في غرب المحيط، ولم تعد إلىٰ مالي، فقد ابتلعها المحيط ولم ينج إلا رجلٌ واحد، عاد علىٰ ظهر سفينته إلىٰ السودان الغربي يحمل أنباء الفاجعة إلىٰ الملك.

حينذاك أخذ الملك يفكر في حملة أخرىٰ يقودها بنفسه لاكتشاف تلك الأرض، فانتهزتها فرصةً سانحةً لأصحبه في

رحلته المجهولة علىٰ ظهور الموج، في بحر الظلمات؛ وليتني لم أصحبه وبقيت في وطني وبين أهلي...

وصمت الرجل برهةً ثم استأنف قائلًا:

ومضىٰ الأسطول الشراعي العظيم يشق بنا سطح المحيط متجهًا نحو الغرب، ووجود الملك بيننا يزيدنا شجاعةً وقوةً وأملًا؛ ولكنَّ الأمل والقوة والشجاعة لا تغنىٰ شيئًا في مقاومة الأقدار المكتوبة، فقد أصبحنا ذات يوم والأمواج تلعب بنا لعبًا خطيرًا، فأخذت سفن الأسطول تتجمع متقاربةً ليتعاون بعضها مع بعض علىٰ الخروج من هذه العاصفة، ولكن تجمعها كان شرًا ووبالًا، إذ وافق ذلك اشتداد الرياح، وثورة الموج، فتصادمت السفن وحطم بعضها بعضًا، وتساقط الرجال من فوق ظهروها إلىٰ قاع المحيط؛ ثم زاد عصف الرياح وثوران الموج فتبعثر ما بقيَ من السفن علىٰ ظهر الماء، وفصلت بينها جبال الموج، فلم تعرف سفينة من السفن أين موضعها من سائر سفن الأسطول العظيم، ورأيتني وافقًا علىٰ ظهر سفينة من تلك السفن، بين رجال مذهولين، لا يكاد بعضهم يعرف بعضًا من شدة الهول الذي يحيط بهم، ثم ارتفعت بنا السفينة علىٰ ظهر موجة عاتية، ثم انخفضت، ثم عادت ترتفع، ولكنها لم تنخفض،

فقد ألقت كل حمولتها في الماء..

كان ترجمان ملك الجزيرة يقص قصته علىٰ الفتيان الثمانية وهم منصتون إليه في تأثر عميق وحزن بالغ...

إذن فهو رجل من العرب، سبقهم إلىٰ هذه الأرض وكانوا يظنون أنهم أول من وصل إليها من شرق المحيط؛ ولكن لماذا آثر البقاء في هذه الأرض الجديدة ولم يعد إلىٰ وطنه لينشر بينهم نبأ اكتشافه، لعل منهم من تطيب له الهجرة إلىٰ تلك الأرض فيتخذها وطنًا؟

كذلك سأله الفتيان، فمسح دمعةً تتدحرج علىٰ خدِّه وقال لهم: صبرًا، فسأخبركم بقصتي كاملة.

وصمت برهةً قصيرةً ثم استأنف يقول: قلت لكم إنَّ السفينة التي كنت أركبها قد غدر بها الموج فألقت كل حمولتها في الماء، ورأيتني بعد قليل سابحًا علىٰ لوح من الخشب بلا إرادة، والأمواج تذهب بي يمنةً ويسرة، وفوق وتحت، ومن حولي ألواح كثيرة مبعثرة، علىٰ قرب وعلي بعد، قد تعلق بها كذلك رجالٌ يسبحون عليها مثلي بلا إرادة.

وكان فكري في تلك اللحظة مشغولًا بالملك، فقد كنت علىٰ يقين بأن السفينة قد قذفته كما قذفتني، ولكني لم أكن

أعرف ألم يزل حيًّا مثلي يسبح علىٰ لوح من الخشب إلىٰ حيث لا يدرىٰ، أم طواه الموج في أعماق المحيط كما طوىٰ كثيرًا من رجال الأسطول العربي المحطم!

ولكن فكري لم يبق متصلًا بهذا الموضوع طويلًا فقد لطمتني موجة عنيفة ففقدت وعيي، فلم أنتبه إلا بعد ساعات وأنا علىٰ شاطئ هذه الجزيرة، ومن حولي رجال كبعض من رأيتم من أهلها، ينظرون إليَّ في عجب ودهشة، لا يكادون يصدقون أنَّ الموج قد قذف بي إلىٰ جزيرتهم من شرق المحيط، فقد كان كثير من أهل الجزيرة -مثل كثير من أهل المشرق- يعتقدون أن المحيط هو آخر دنياهم من ناحية الشرق فلا أرض وراءه...

ثم حملوني إلىٰ الملك، فحاول أن يعرف بعض أمري ولكني لم أكن أعرف لغته، ولم يكن يعرف لغتي؛ فأخذنا نتبادل الحديث بالإشارة وقتًا، حتىٰ مل ومللت، فأمر بحبسي في بعض الحجرات حتىٰ يفكر في أمري.....

ولست أطيل عليكم يا بني العم، فقد أقمت في تلك الجزيرة من يومئذ، وتعلمت لغة القوم، وتزوجت منهم، ووُلِدَ لي بينهم، ولكني لم أستطع أن أعلِّمَ أحدًا من أهل الجزيرة

لغتي غير زوجتي وأولادي!

ومضت بضعةُ أشهر قبل أن أستكشف في الجزيرة عربيًّا آخر غيري، وكان من رفقائنا في تلك الرحلة المشؤومة، ولكن الموج ألقاه مع بعض رفقائه علىٰ شاطئٍ بعيد من الجزيرة، فعاش مع أصحابه هنالك أشهرًا، لا يحاولون الانتقال عن مكانهم إلىٰ مكان غيره، ثم أصاب المرض رفقاءه فلم يمهلهم وعاش وحيدًا بعدهم أيامًا، ثم أخذ يضربُ في أرض الجزيرة حتىٰ وصل إلينا....

وعثر به أتباع الملك، فحملوه إليه، فاستدعاني لأكون تُرجمانًا للحديث بينهما، ولم تزل هذه وظيفتي في بلاط ملك الجزيرة منذ ذلك اليوم...

قال الفتيان: وذلك الرجل؟

قال: لقد مات بعد شهر واحد من مقدمه إلينا، فانقطع بموته نسب العرب في هذه الجزيرة، حتىٰ رمتكم إلينا المقادير من وراء المحيط.

قال كبير الفتيان: لقد سمعنا في لشبونة -قبل أن نركب البحر إلىٰ هذا المصير- جزءًا من قصة ملك مالي، ثم سمعنا منك البقية؛ وإن أهل مالي ليتحدثون عن ملكهم الراحل

وأصحابه حديثًا يذيب القلوب، ويتحرقون شوقًا إلىٰ خبر عنكم؛ فإن كتب الله لنا الحرية وعدنا سالمين إلىٰ أرضٍ المغرب، فسنحدثهم بما سمعنا، وإنا لنرجو أن تعود معنا فتحدثهم بما رأيت...

قال الرجل: أما أنا فلا معاد لي؛ فقد انقضىٰ زمان منذ فارقت وطني، ولا أظن أن أحدًا من أهلي ينتظرني، وإنَّ لي هنا زوجةً وأولادًا لا تطيب نفسىٰ بفراقهم؛ أما أنتم فسأبلغ الملك ما عرفت من خبركم، وإني لأرجو أن يتحقق أملكم في الحرية والعودة إلىٰ الوطن.

ثم غادرهم في حجرتهم، وأغلق عليهم الحراس بابها...

ومضت ساعات قبل أن يدخل إليهم حارس الباب، تصحبه الفتاة الشقراء، وهي تحمل لهم علىٰ رأسها ما يحتاجون إليه من طعام وشراب...

ومضىٰ النهار، وأقبل الليل بطيئًا متثاقلًا، وهم ينتظرون أن يعود إليهم ترجمان الملك بما يأملون من الحرية؛ ولكنه لم يعد؛ وقضوا ليلتهم يتبادلون الحديث فيما بينهم، لا يكادون ينتهون إلىٰ رأي صحيح فيما يمكن أن يكون...

ثم أشرق الصبح، وعادت إليهم الفتاة تحمل طعام

الفطور ثم ارتفع الضحا، فإذا ترجمان الملك يدق عليهم الباب فتعلقت به أبصارهم ينتظرون كلمةً تخرج من فمه فتردهم إلىٰ الحرية، ولكن الكلمة التي كانوا ينتظرونها لم تلفظها شفتاه وإنما دعاهم إلىٰ المثول بين يدي الملك...

وكان الملك جالسًا، فحيَّوْه بخفض الرأس وإلقاء السلام، ثم وقفوا بين يديه ينتظرون ما يأمر به في شأنهم؛ وكان الترجمان واقفًا بينهم وبين الملك، لينقل إليه حديثهم وينقل إليهم حديثه...

وسألهم الملك كما سألهم الترجمان من قبل: من أنتم..؟ ومن أين....؟ وكيف....؟

وأجاب عنهم كبيرهم بما أجاب به الترجمان من قبل، ثم أردف قائلًا: وإننا لنأمل يا مولاي أن تكون رحلتنا هذه سبيلًا إلىٰ خيرٍ تناله بلادك وبلادنا،

فتكون بيننا صلة قربىٰ وآصرة تعاون ووداد، ويكون لك في شرق المحيط أصدقاء يذكرونك بالثناء ويحفظون لك الولاء!

ونقل الترجمان العربي كلامهم إلىٰ الملك كلمةً كلمةً وحرفًا حرفًا، فابتسم وأجاب: لقد أحسنتم الحديث أيها الفتيان ولكنكم لم تحسنوا العمل، وما أظنكم في هذه الرحلة إلا مغامرين يطلبون لنفسهم الهلكة، فلا تحاولوا استئناف الرحلة إلىٰ ما وراء هذه الجزيرة، إن كنتم تطلبون لأنفسكم النجاة والحرية!

ثم أردف الملك قائلًا: فإذا كنتم تطمعون أن تصلوا إلىٰ أرض أخرىٰ وراء هذه الجزيرة فلا تحاولوا؛ فنحن أقرب إليها وأولي بها؛ وما كان لكم أن تدوسوا أرضىٰ أو تتخذوها معبرًا إلىٰ أرض وراءها بغير إذن مني؛ أما وقد تجرأتم علىٰ أن تدوسوا هذه الأرض بغير إذن فإني لا أسمح لكم بأن تستمروا في هذه المغامرة، ولا أن تسلكوا هذا الطريق مرةً أخرىٰ بين بلادي وبلاد المشرق؛ لأني لا أريد أن تكون بين بلادي وبلاد المشرق طريقٌ معروف!....

١٠

مخاوف الملك !

كان الملك يخشىٰ أن يكون إطلاق سراح هؤلاء الفتية سببًا إلىٰ شر يصيب بلاده وقومه؛ وأول هذا الشر الذي يخشاه أن يعرفوا الطريق ويألفوه؛ فإذا عادوا إلىٰ بلادهم أخبروا قومهم بما اكتشفوا من الأرض الجديدة في غرب المحيط، فيتشجع أهل المشرق علىٰ عبور المحيط إلىٰ جزيرته وما حواليها من الجزر والبلاد، ليتخذوها مستعمرات ينتفعون بما فيها من خير ونعمة؛ فيضعف سلطانه، ويشقىٰ شعبه ويقل الخير في يديه وأيدي أصحابه وأهله...

وكان يقدر أنَّ الذين يتجرؤون من أهل المشرق علىٰ اقتحام بحر الظلمات حتىٰ يصلوا إلىٰ جزيرته، لابد أن يكونوا أقوياء جبارين قساة القلوب شديدي الجسارة، لا يقدر قومه علىٰ مقاومتهم....

وكان الملك إلىٰ ذلك يطمع في اكتشاف ما حوله من الجزر المتفرقة في المحيط ليتسع ملكه ويقوىٰ سلطانه ويزيد اتباعه؛ ولو أنه أطلق سراح هؤلاء الفتية وردَّ إليهم حريتهم لسبقوه إلىٰ اكتشاف تلك الجزر؛ فإذا ملكوها واستقروا فيها

واستغلوا ثرواتها ازداد خطرهم علىٰ جزيرته، لأنهم يحيطون بها من كل جانب؛ فلو شاءوا لاقتحموا عليه أرضه وضيعوا سلطانه وحطموا عرشه، أو حصروه بينهم كالأسير المقيد في الأغلال، لا يملك أن يتقدم او يتأخر عن موضعه إلا بإرادة الذين أسروه!

من أجل ذلك كان مترددًا في إطلاق سراحهم؛ ولكنه برغم مخاوفه كان رجلًا رحيمًا عادلًا طيب النفس، لا يريد أن يظلمهم فيقتلهم أو يطيل حبسهم وهم أبرياء لم يرتكبوا ذنبًا، ولم يسيئوا إليه ولا إلىٰ أحد من قومه....

فصمت متحيرًا يفكر في موقفه من هذه القضية، والشبان الثمانية واقفون بين يديه صامتين مثله، والترجمان العربي واقف كذلك يقلب عينيه بينهم وبين الملك...

وطال الصمت، فاندفع كبير الشبان يقول أيها الملك الرحيم، لقد علمت أننا لا نبغي شرًا بك ولا بأحد من أهل الجزيرة؛ فاسمح لنا أن نمضي إلىٰ حيث نشاء ولك الشكر والمنة!

قال الملك باسمًا:

أمَّا إن كنتم تريدون استئناف الرحلة إلىٰ ما وراء هذه الجزيرة فإني أمنعكم؛ لا خوفًا منكم، بل خوفًا عليكم؛ فقد خرج أبي منذ سنين بعيدة، ومعه طائفة من أتباعه، يريد مثل ما تريدون فجرىٰ بسفينته شهرًا في عرض المحيط إلىٰ أن انقطع عنه الضوء وأحاطت به الظلمات، وكاد يهلك هو ومن معه، فعاد من غير أن يظفر بشيء، ولولا لطف الله ما نجا ولا نجا أحد من أصحابه؛ وأنا أشفق عليكم من عواقب هذه المغامرة؛ وأمَّا إن كنتم تريدون العودة إلىٰ بلادكم في شرق المحيط فلكم عليَّ ذلك، ولكن بعد أن أحتاط للأمر لأطمئن إلىٰ أنكم لن تعودوا إلينا ولن يعود بعدكم أحد من أهل بلادكم...

قالوا: نعاهدك إيها الملك ألا نعود!

قال: لست اطمئن إلىٰ عهدكم؛ فليس لغريبٍ عهد ولكني أرجو أن تنتظروا حتىٰ أدبر أمري...

ثم أشار إلىٰ أتباعه، فقادوهم إلىٰ محبسهم، وأغلقوا وراءهم الباب...

ومضىٰ زمان وهم محبوسون في تلك الحجرة، لا يدخل إليهم فيها إلا الحراس والفتيات اللاتي يحملن إليهم الطعام، حتىٰ يئسوا من الخلاص وانقطع أملهم في العودة إلىٰ بلادهم وأهليهم...

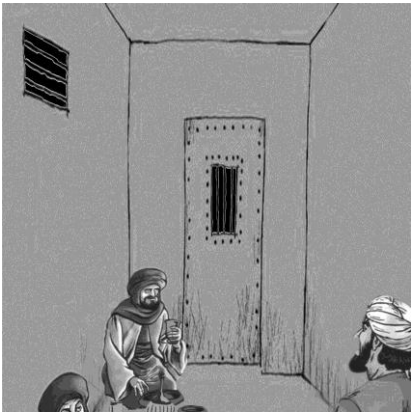

١١

علي الشاطئ الأفريقي

تعاقبت الأيام والليالي وهو محبوسون في تلك الحجرة، يأكلون ويشربون، ويتحدثون ويصمتون وينامون ثم يستيقظون؛ لا يعرفون متىٰ تنتهي هذه الحالة ولا كيف تنتهي...

وذات صباح انفتح الباب علىٰ غفلة، ودخل ترجمان الملك ليقول لهم: استعدوا.....

ولم يكونوا يُؤَمِّلون أن يعود إليهم الترجمان ليحدثهم بلسانه العربي، بعد أن فارقوه في مجلس الملك من زمان؛ فلما رأوه وسمعوا كلمته، تحيروا برهةً ولم يعرفوا ماذا يريد، وظن بعضُهم أنَّ الملك قد أمر بقتلهم ليتخلص منهم نهائيًا، وظن بعضُهم أنَّ الترجمان سيذهب بهم مرة أخرىٰ إلىٰ مجلس الملك؛ ولكن الأمر لم يكن هذا ولا ذاك، وإنما كان الترجمان يأمرهم بالاستعداد للرحيل إلىٰ بلادهم...

وكانت الرياح الغربية قد حان موعد هبوبها، وهو موعد يحين في كل سنة، ويعرفه أهل الجزيرة؛ ومن أجل ذلك كان بقاؤهم في الحبس إلىٰ أن يحين ذلك الموعد...

فرح الشبان حين عرفوا ذلك، واستعدوا لصحبة الترجمان إلىٰ شاطئ الجزيرة.

وكان علىٰ الشاطئ زورق كبير، فيه طعام كثير وماء عذب، فتهيَّؤوا للنزول فيه، وقلوبهم تفيض فرحًا ومسرة؛ ولكنهم قبل أن يركبوا تقدم منهم أحد أتباع الملك فقيدهم ووضع علىٰ عيني كل منهم عصابة حتىٰ لا يروا ولا يعرفوا في أي طريق يذهبون، ثم وُضعوا جميعًا في الزورق، وقُطعت حباله، فجرىٰ بهم مع التيار مسرعًا إلىٰ حيث لا يدرون ولا ينظرون، ولا يعرفون أهو منحدر بهم إلىٰ هاوية أو صاعد بهم إلىٰ جبل.....

ولم يزل الزورق يجرىٰ بهم علىٰ ظهر الماء، وهم مقيدون وعيونهم معصوبة، ولا يعرفون نهارًا من ليل، ولا صباحًا من عشية، ولا شرقًا من غرب، ولا شمالًا من جنوب؛ ولا يدرون كم مضىٰ عليهم من الزمن إلا بالتخمين والظن؛ ثم

أحسوا أنهم يقتربون من اليابسة، فاستبشروا، وتهيئوا للنزول إلىٰ الأرض...

وظلوا علىٰ الشاطئ مقيدين، والعصائب مربوطة علىٰ عيونهم لا يعرفون أين هم، ولا يدرون أهم في ليل أم في نهار حتىٰ شعروا بالشمس تلسع أقفيتهم وبالحر يخنق أنفاسهم، فعرفوا أنهم في النهار لا في الليل، فحاولوا أن يتخلصوا من قيودهم ليمشوا علىٰ هدًىٰ، لكنهم لم يستطيعوا، فصبروا علىٰ ما هم فيه من الضنك والضيق، وهم يسألون الله أن يعجل بخلاصهم من هذا العذاب...

وتعاقبت الساعات وهم مقيدون علىٰ الشاطئ، لا يطرق آذانهم إلا صوت الأمواج تتدافع علىٰ الصخور بالقرب منهم...

ثم سمعوا ضوضاء، وأصوات ناس، فأخذوا يصيحون صياحًا عاليًا، ليلتفت القادمون إليهم فيساعدوهم علىٰ الخلاص من قيودهم، فارتفعت أصواتُهم مجتمعةً في الفضاء، وتردد صداها بين صخور الشاطئ؛ فما كاد الناس يسمعون أصواتهم حتىٰ أسرعوا نحوهم ليعرفوا خبرهم، ورفعوا العصائب عن عيونهم؛ ثم سألوهم عن حالهم، وخبرهم، وما جرىٰ لهم، وسبب قدومهم إلىٰ هذا الشاطئ؛ ففرح الشبان حين سمعوا حديثهم بالعربية، وقالوا لهم: نحن أبناء عم من

أهل لشبونة، خرجنا بسفينتنا في المحيط الأطلسي، منذ بضعة أشهر، لنكشف أرضًا جديدة في غرب المحيط...

ثم أخذوا يصفون لهم ما احتملوا في رحلتهم من الصعاب، وما رأوا من الغرائب والعجائب، وما اكتشفوا من الأرض، وما لقوا من المعاملة، حتىٰ ألقىٰ بهم الزورق مقيدين علىٰ ذلك الشاطئ المجهول...

فاستعجب الناس قصتهم وخبرهم، وقالوا لهم: أتعرفون أيها الشبان في أي بلد أنتم؟ وكم تبلغ المسافة بينكم وبين بلدكم؟ فهز الشبان رءوسهم وقالوا: لا ندري!

قالوا لهم: إنكم علىٰ الشاطئ الغربي من أفريقيا، في أقصىٰ الجنوب من بلاد المغرب العربي، وإن بينكم وبين بلدكم مسيرة شهرين في البادية علىٰ ظهور الجمال!

١٢

كل غريب إلى مآب !

أقام الشبان الثمانية في جنوب المغرب العربي ريثما تتهيأ لهم الأسباب ليعودوا إلىٰ بلدهم " لشبونة" في غرب الأندلس، وأكرمهم أهل المغرب فضيَّفوهم وآووهم وقدموا لهم كل ما يستطيعون من أسباب المعونة...

وكان الناس يجتمعون بهم ويستمعون إلىٰ أحاديثهم، فذاعت قصتهم، وانتشر خبرهم في البلاد القريبة والبعيدة؛ فمن الناس من يصدق ما يسمع، ومنهم من يكذب وينكر وكان الشبان يلمحون في بعض العيون تكذيبًا لقصتهم وخبرهم، فيعضون علىٰ شفاههم من الغيظ؛ لأنهم لا يملكون برهانًا واحدًا علىٰ صدق ما يقولون؛ إذ كانت عودتهم علىٰ غير سفينتهم، وبغير إرادتهم، فلم يستطيعوا أن يحملوا معهم شيئًا من آثار الأرض التي أكلوا من ثمرها، وشربوا من مائها وعاشوا فيها أسابيع؛ لتكون تلك الآثار برهانًا علىٰ صدق ما يقولون..

وذات يوم وفد عليهم بضعة نفر من السودان الغربي سمعوا بقصتهم من بعيد، فجاءوا يقطعون مئات الأميال علىٰ ظهور الجمال ليتبينوا الحق من قصتهم ويعرفوا المزيد من

أخبارهم؛ وكان منهم شيخ في الثمانين، قد تجعدت بشرته، وانحنت قامته، وسقطت أسنانه، وابيضَّ شعره؛ فأقبل علىٰ الشبان قائلًا:

خبروني، هل رأيتم أحدًا في تلك الأرض يتحدث العربية غيركم؟

قالوا: نعم رجلًا واحدًا قد جاوز الخمسين من عمره، ويعمل ترجمانًا لملك الجزيرة...

ثم قصوا علىٰ الشيخ قصة الترجمان كما سمعوها منه، فازدحمت الدموع في عيني الشيخ، وقال بصوت مختنق: ليته عاد معكم؛ فإنَّ أهله ما يزالون ينتظرونه!

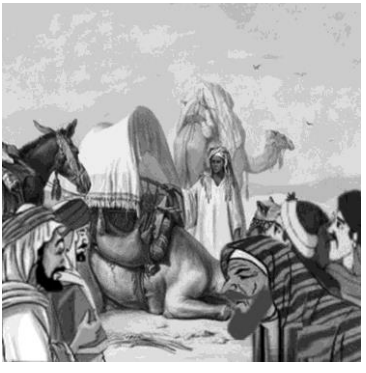

ثم بكىٰ، وبكىٰ كل من معه من أهله، وأقبل الجميع

عليه يواسونه ويصبِّرونه ويقولون له:

الحمد لله علىٰ سلامته، وعلىٰ سعادته؛ فذلك أقصىٰ ما كنا نأمله له، ولعل الله أن يلطف به وبك، فيجمع شملكما بعد هذا الفراق الطويل!

وعرف الشبان من حديث الرجل وأهله، أن ذلك الشيخ هو أبو ذلك الترجمان، وكان كل منهما يظن أنَّ الآخر قد مات؛ فاستعجب الشبان لهذه المقادير العجيبة، التي جمعتهم بكل من الأب الشيخ، وولده المهاجر، علىٰ غير موعد ولا انتظار، ليحملوا إلىٰ ذلك الأب اليائس رسالةً غير مكتوبة من ولده الغائب وراء بحر الظلمات، ترده إلىٰ الأمل في رحمة الله...

قال أحد الشبان الثمانية لأصحابه:

الحمد لله لقد كان في رحلتنا خير علىٰ كل حال!

قال شاب آخر منهم:

نحمده حمدًا كثيرًا، فلولا رحلتنا ما عرف ذلك الشيخ خبرًا عن ولده الغائب، ولا عرف شعب السودان خبرًا عن ملكه المفقود، ولولا رحلة ذلك الشيخ إلينا ليتبين الحق من قصتنا، ويعرف المزيد من أخبار ولده الغائب، لظل نصف

الناس مكذبين لحديثنا، وظل النصف الآخر منهم في شك مريب؛ فالآن قد وجد هؤلاء وأولئك برهان صدقنا من التطابق بين حديث الشيخ عن ولده وحديثنا، وما كان للشيخ معرفةٌ بنا من قبل، ولا كان لنا معرفةٌ به ولا بولده!

قال كبيرهم:

ليس هذا كل ما في الأمر يا بنيْ العم؛ فإن رحلتنا هذه إلىٰ الأرض الجديدة لن تكون آخر الرحلات بين شرق المحيط وغرب المحيط؛ فقد فتحنا الطريق، ولا بد أن يسلكه غيرُنا قريبًا أو بعيدًا فيزداد عمران الدنيا ويتسع رزق الناس!

١٣

العودة إلى لشبونة

وعرف الشبان أنَّ القافلة من تجار المغرب في طريقها إلىٰ الأندلس، فرغبوا في صحبتها، ولم يكن معهم زاد، ولا مال، ولا ركائب؛ فحملهم التجار علىٰ ركائبهم، وأطعموهم من زادهم، ولم يكلفوهم مالًا ولا نفقة!

ولم تزل القافلة تسير بهم، أيامًا وليالي، حتىٰ وصلوا إلىٰ الرباط فاستراحوا فيها أيامًا، ثم استأنفوا رحلتهم إلىٰ فاس، فباعوا واشتروا، ثم استأنفوا رحلتهم إلىٰ سبتة علىٰ شاطئ البحر المتوسط، ثم اجتازوا مضيق جبل طارق إلىٰ بلاد الأندلس، فودعهم الشبان وشكروهم واتخذوا طريقهم إلىٰ لشبونة...

وكان أهل لشبونة منذ غادرهم هؤلاء الشبان في رحلتهم

إلىٰ غرب المحيط، لا حديث لهم إلا عن هذه المغامرة الجريئة التي أقدموا عليها، فمن الناس من كان يدعو لهم بالتوفيق ويرجو لهم السلامة، ومنهم من كان يعيب عليهم فعلهم ويصفهم بالطيش والحماقة، ولا يؤمل أن يعودوا...

واستمر أهل لشبونة يتحدثون عنهم بعد سفرهم، ليالي وأسابيع وأشهرًا، ولكنهم لم يلبثوا -وقد طال غيابهم وانقطعت أخبارهم- أن أيقنوا بهلاكهم وترحموا عليهم محزونين، ثم نسوهم فلا يكاد يذكرهم أحد من أهل بلدهم إلا أن يمر أحدهم بالشارع الذي كانوا يقيمون فيه، فيقول: هذا الشارع "الإخوة المغرورين"!

ولكن المدينة الكبيرة لم تلبث أن استيقظت ذات صباح علىٰ نبأ عجيب يتحدث به الناس جميعًا ولا يكاد يصدقه أحد منهم؛ ذلك هو نبأ عودة الأخوة المغرورين أحياءً، بعد أن ظن الناس جميعًا أنهم قد هلكوا وابتلعهم المحيط!

- أصحيح هذا؟

- نعم والله.

- أسمعت أم رأيت بعينيك؟

- سمعت بأذني ورأيت بعيني، وإن شئت فاصحبني إلىٰ المسجد الكبير لتراهم بعينيك مثلي وتسمع حديثهم إلىٰ الناس..

- هيا!

وتقاطر الناس أفواجًا علىٰ المسجد الكبير، ليروا بأعينهم ويسمعوا بآذانهم حديث "الأخوة المغرورين" الذين وصلوا إلىٰ الأرض الجديدة في غرب "بحر الظلمات"، ثم عادوا إلىٰ بلادهم سالمين....

وجلس الشبان في المسجد يقصون قصتهم علىٰ أهل لشبونة، ويصفون لهم ما لقوا في رحلتهم من الأهوال، وما رأوا من العجائب، وما اكتشفوا من الأرض، وما شاهدوا من الناس؛ وأهل لشبونة يستمعون إليهم مدهوشين معجبين، لا يكادون يصدقون شيئًا مما يسمعون من ذلك الحديث...

ولمح الشبان في عيون الناس إنكارًا وتكذيبًا؛ فقال واحد منهم: إن كنتم لا تصدقون ما نقص عليكم ونصف لكم، فهل

تنكرون ما رأت عيونكم.

قال واحد من السامعين: وماذا رأت عيوننا مما تقصون؟

قال الشاب: لقد رأيتمونا بعيونكم ونحن نبحر بسفينتنا من ميناء لشبونة، متجهين إلىٰ الغرب، وكنتم تصفوننا بالغرور، والطيش، والحماقة، وتظنون أن سيبتلعنا المحيط، وها نحن أولاء بين أيديكم نتحدث إليكم وتسمعون منا؛ أفلا يكفيكم هذا برهانًا علىٰ صدق قولنا؟

قال الناس: وأي برهان هذا؟ لقد ذهبتم أمام أعيننا من طريق وعدتم من طريق آخر، فأين البرهان علىٰ أنكم وصلتم في رحلتكم إلىٰ أرض في غرب المحيط؟

قال كبير الفتيان في حماسة وثقة: إنكم تملكون البرهان الذي لا يحتمل التكذيب؛ فهل تسمعونني؟

فبدت الحماسة في وجوه الناس وقالوا: هاتوا برهانكم!

قال الفتىٰ: برهاننا أن تجهزوا لنا سفينة كبيرة، أو عدةً من السفن، فيصحبنا فيها من شاء منكم إلىٰ تلك الأرض التي اكتشفناها في غرب المحيط قبل أن يكتشفها أحد من أهل هذا المشرق، وسنمر بكم علىٰ جزيرة الغنم والتين والماء العذب،

ثم نقصد بكم إلىٰ تلك الجزيرة الأخرىٰ، حيث يعيش أصحاب الوجوه الشقر والشعور المرسلة، ثم نمضىٰ بكم إلىٰ تمام الرحلة إن أردتم لاكتشاف سائر الأرض؛ وستعرفون وقتئذ معرفة اليقين أننا لم نكذبكم ولم نغرر بكم ولا بأنفسنا...

نظر الناس بعضهم إلىٰ بعض، ولكنهم لم ينطقوا حرفًا بتأييد ولا معارضة، ثم تفرقوا وفي رؤوسهم خواطر شتىٰ...

وذاع ذلك الحديث في المدينة كلها، حتىٰ طرق كل سمع وجرىٰ علىٰ كل لسان؛ وتمنىٰ كثير من الشبان وكثير من الرجال وكثير من الشيوخ أيضًا، أن تتاح لهم الفرصة للاشتراك في مثل هذه المغامرة، ليصلوا إلىٰ الأرض الجديدة في غرب المحيط...

وبلغ الخبر آذان الملوك والأمراء في شتىٰ بلاد الأندلس، ومضىٰ ينتقل بين البلدان حتىٰ عرفة الناس في كل أنحاء الجزيرة، وتحدث به العرب وغير العرب، وفي إسبانيا، والبرتغال، وفي المغرب علىٰ الساحل الأفريقي، وفي إيطاليا؛ وتمنىٰ كل من سمعه أن يتاح له حظ الاشتراك في هذه الرحلة العجيبة، فيطأ بقدمه الأرض الجديدة في غرب المحيط...

ولكن كل الذين كانوا يتمنون ويرغبون في الرحلة لم يكونوا يملكون الوسائل، والذين كانوا يملكون الوسائل كانت أمور أخرىٰ ذات خطر تشغل بالهم أكثر مما يشغلهم التفكير في رحلة محفوفة بالمخاطر إلىٰ بلاد مجهولة في غرب المحيط!...

١٤

الحرب بين العرب والإسبان

في تلك السنين البعيدة، كانت الحرب دائرة الرحىٰ بين العرب والإسبان في الأندلس...

كانت المنازعات الداخلية ومطامع الأمراء قد فرقت العرب في الأندلس أحزابًا وشيعًا، يقاتل بعضهم بعضًا ويكيد بعضهم لبعض؛ وكان منهم من يُحالف الإسبان أو الفرنجة ليغلب بهم خصومه من العرب؛ فضعف الغالب منهم والمغلوب وقوي الإسبان والفرنجة، وأشرفت دولة العرب في الأندلس علىٰ نهايتها!...

حينذاك انتهز الإسبان الفرصة لإجلاء العرب جميعًا عن الأندلس، فنشبت بينهم المعارك واستمرت...

وظلت رحىٰ الحرب دائرةً بين العرب والإسبان سنين ذات عدد: تتحد كلمة العرب حينًا فيقوون ويغلبون وتثبت أقدامهم في الأرض ويمتد سلطانهم علىٰ

ما حواليهم من البلاد؛ فإذا تفرقوا ضعفوا وغلبهم العدو وتقلص ظلهم عن البلاد.....

جاء القرن الثالث عشر والحال كذلك بين العرب والإسبان؛ وفي هذا القرن الثالث عشر كانت رحلة أولئك الشبان إلىٰ غرب المحيط ووصولهم إلىٰ تلك الأرض الجديدة؛ فلو كانت الدولة العربية يومئذ في الأندلس خالية البال من تلك الهموم، لساعدت أولئك الراغبين في الرحلة إلىٰ الأرض الجديدة، لينشروا دعوة الحق وراء بحر الظلمات، كما تمنىٰ عقبة بن نافع ذات يوم منذ قرون...

ولكن الدولة العربية يومئذ في الأندلس لم تكن خالية البال؛ إذ كانت تمزقها مطامع الأمراء، وتشغلها أحداث الحرب المتصلة بين العرب والإسبان؛ فلما جاءتها أنباء هذا الاكتشاف الذي وصل إليه الشبان المغامرون من عرب لشبونة، لم تكترث الدولة العربية بما جاءها من تلك الأنباء ولم تحاول عملًا ولا خطة...

وبقيت أخبار هذا الاكتشاف قصة تروىٰ للتسلية في مجالس السمر، ويتناقلها الرواة من سامر إلىٰ سامر لتبلغ حظها من الانتشار والذيوع ويذكرها أهل التاريخ ثم لا شيء غير ذلك!

وكتبها أهل التاريخ في كتب التاريخ، وذكرها علماء الجغرافيا في المؤلفات الجغرافية، بلغة العرب، وبغير لغة العرب، من لغات الإسبان والبرتغال وغير الإسبان والبرتغال.

ولكن "أمريكا" ظلت في عزلتها وراء أمواج المحيط، لا يعرف أحد عنها إلا هذه المعارف القليلة في كتب التاريخ والجغرافيا، أو في أحاديث بعض السمار، أو فيما تشير إليه الصحيفة المكتوبة علىٰ بعض شوارع لشبونة لتدل بعض الغرباء علىٰ شارع " الإخوة المغرورين! "

وانقضىٰ جيل وجيل ومات " الأخوة المغرورون "، ومضىٰ قرن من الزمان وقرن آخر وأشرف القرن الخامس عشر علىٰ الانتهاء ولم تزل " أمريكا " في عزلتها وراء أمواج

المحيط، لا يعرف الناس عنها إلا بعض ما تذكر كتب التاريخ أو كتب الجغرافيا، أو أحاديث السمار، أو ما تشير إليه الصحيفة المكتوبة علىٰ شارع " الإخوة المغرورين " في لشبونة ثم آن الأوان....

١٥

خريستوف كولمبس..

بلغت قصة "الأخوة المغرورين" حظها من الذيوع والانتشار، وتناقلها الناس في كل مكان، وسمع بها العامة وأهل الأسواق في كل مدن الساحل، تحكي كالأساطير أو القصص الخيالية؛ وكان البحارة يحكونها لرفقائهم في أثناء رحلاتهم ومجالس سمرهم، وتقصها العجائز علىٰ أحفادهن في ليالي الشتاء الطويلة الباردة...

ولم تزل مذكورةً علىٰ كل لسان، مرويةً في كل مجلس من مجالس الأنس والمسامرة، علىٰ توالي الأجيال واختلاف الزمان حتىٰ سمع بها خريستوف كولمبس، في ليلة من ليالي

السمر بمدينة "جنوة"؛ فتعلق بها قلبه، واشتغل بها فكرة وتمنىٰ أن تتاح له الفرصة للوصول إلىٰ تلك المجاهل الواقعة في غرب المحيط.

وكان خريستوف كولمبس شابًا فقيرًا، من أهل جنوة، علىٰ الساحل الإيطالي، وكان مولعًا بالرحلات البحرية، فزار موانى البحر المتوسط، ووصل إلىٰ شمال أفريقيا، ووطئت قدماه جبال أطلس في المغرب العربي، وهبط إلىٰ السودان الغربي حيث، بدأت أول محاولة عربية لاكتشاف غرب المحيط وكان يسمع -كلما ذهب إلىٰ بلد من تلك البلاد- قصة الإخوة المغرورين؛ فامتلأت نفسه أملًا في الوصول إلىٰ تلك الأرض التي وطئتها قبله أقدام العرب منذ مئتي سنة، والتي كان يظن أنها بلاد الهند...

وكان ملك الإسبان في ذلك الوقت هو "فرديناند" ففكر خريستوف كولمبس أن يذهب إليه ليطلب مساعدته في الرحلة التي يريدها إلىٰ غرب المحيط، ولكنه لم يلبث أن عدل عن هذه الفكرة، وفضَّل أن يذهب إلىٰ "جون" ملك البرتغال ليطلب منه المساعدة، لأن ميناء "لشبونة" الذي أبحر منه أولئك "الإخوة المغرورون" منذ مئتي سنة، كان في هذا

الوقت ميناء من موانى البرتغال، قد خرج من أيدي العرب ومن أيدىٰ الإسبان جميعًا...

وسمع ملك البرتغال مشروع خريستوف كولمبس للوصول إلىٰ الأرض الجديدة، وتذكر في الوقت نفسه قصة الشبان اللشبونيين فطمع في امتلاك تلك الأرض البعيدة؛ ولكن -مع طمعه- كان بخيلًا، لا تطيب نفسه بإنفاق شيء من المال إلا أن يستيقن من وراء إنفاقه فائدة؛ فاستمهل خريستوف كولمبس ريثما يفكر في الأمر....

ويئس خريستوف كولمبس من معونته، فعاد إلىٰ إسبانيا ليطلب المعونة من الملك فرديناند...

وكان فرديناند في ذلك الوقت مشغولًا بحرب العرب، فلم يستطع خريستوف كولمبس أن يصل إلىٰ إقناعه، ولكنه لم ييأس من معونته، وخطرت علىٰ باله فكرة جريئة؛ ليربط بين مشروعه وبين المعارك التي تدور رحاها بين العرب والإسبان، والتي تستأثر بكل اهتمام الملك فرديناند وزوجته الملكة إيزابيلا...

وكانت إيزابيلا ذات سلطان كبير علىٰ نفس فرديناند فأرسل إليها خريستوف كولمبس يستأذن في مقابلتها لأمر مهم تتعلق به نتائج الحرب بين العرب والإسبان..

فاهتمت الملكة وأذنت له في المقابلة؛ فلما مثل بين يديها قال لها؛ إنني أعلم يا مولاتي مدىٰ اهتمامك بالتغلب علىٰ العرب لينقطع دابرهم من هذه البلاد، فهل ترضين أن ينهزموا هنا في الأندلس ليتجمعوا في أرض أخرىٰ أكثر خصبًا وغنًىٰ ويعودوا أقوياء أغنياء فينزعوا من الإسبان ثمرة ما أحرزوه من النصر؟

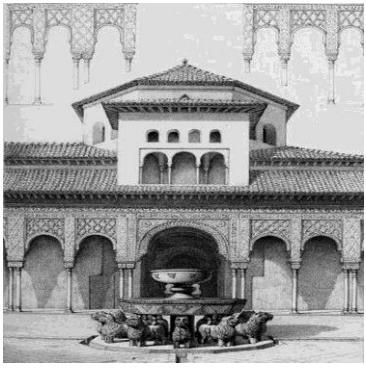

قال الملكة:

ماذا تعنىٰ أيها البحَّار؟ وأين تلك الأرض التي تشير إليها وليس أمامهم إلا ساحل المغرب، وسنطاردهم هنالك حتىٰ نجليهم عن الشاطئ الأفريقي كما أجليناهم عن الأندلس!

قال خريستوف كولمبس:

معذرةً يا مولاتي... فلست أقصد أرض المغرب. إنَّ هناك أرضًا أخرىٰ غير المغرب وسواحل أفريقيا، ترابها ذهب، وخصبها عجب، وماؤها سلسبيل، وأنهارها أعظم من النيل،

وقد عرفوا إليها السبيل؛ فإن سبقناهم إليها يا مولاتي فقد انتصرنا أعظم انتصار، أمَّا إن سبقونا فليس لنا إلا الهزيمة والعار والدمار!...

قالت الملكة:

إنني لا أفهم ما تقول يا رجل؛ فأين هذه الأرض التي تخشىٰ أن يسبقنا العرب إلىٰ امتلاكها؟

قال خريستوف كولمبس:

إنها أرض الهند يا مولاتي، في غرب هذا المحيط؛ فأعينيني بالمال، وبالسفن والرجال؛ لأجعل راية فرديناند وإيزابيلا ترفرف عاليةً علىٰ غرب المحيط، كما ترفرف عاليةً في شرق المحيط....

١٦

مشورة إيزابيلا

كانت الحرب الدائرة بين العرب والإسبان في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي قد بلغت أقصىٰ الشدة، وحشد لها كل فريق قوته وحيلته، ليضمن النصر علىٰ عدوه بكل وسيلة.

أما العرب فكانوا يحاربون لأنهم لا يريدون أن يجلوا عن البلاد التي عرَّبها آباؤهم منذ ثمانية قرون، ونشروا فيها نور العلم والحضارة، وأزالوا عنها ظلام الجهل والهمجية، وحققوا فيها المساواة والعدالة، وجعلوها جزءًا من الوطن العربي الكبير، الذي يمتد من "غانة" في أقصىٰ المغرب إلىٰ "فرغانة" في أقصىٰ المشرق...

وأما الإسبان فكانوا يحاربون ليطردوا العرب من شبه جزيرة الأندلس، ومن أوروبا كلها، لأنهم يخشون إن بقي فيها العرب أن يستمروا في فتوحهم متجهين نحو فرنسا، وإيطاليا، وبلاد البلقان، حتىٰ يصلوا إلىٰ القسطنطينية، فتدين أوربا كلها للعرب كما دانت آسيا وأفريقيا، وتصير جميع البلاد المطلة علىٰ البحر المتوسط، من الجنوب ومن الشمال، للعرب ويصبح ذلك البحر بحيرةً عربية.

ومن أجل تحقيق إحدىٰ هاتين الغايتين كان يتحارب العرب والإسبان في الأندلس، ويجتهد كل منهما ليكون له النصر والغلبة بكل وسيلة ممكنة...

وكانت الملكة إيزابيلا تبذل كل قوتها وكل حيلتها ليكون النصر للإسبان، فلما سمعت مقالة خريستوف كولمبس عن الأرض الأخرىٰ، لم تصدق مقالته في أول الأمر ولكنها خافت أن يسبق العرب إلىٰ تلك الأرض ويفوزوا بما فيها من خيرات، فيزدادوا قوةً وغنًىٰ، ويعجز الإسبان عن مقاومتهم؛ فأسرعت إلىٰ فرديناند تشاوره في الأمر....

قال فرديناند:

إننا محتاجون يا إيزابيلا إلىٰ كل درهم في أيدينا لنحارب به العرب، فكيف يخطر في بالك أن ندفع لهذا الإيطالي المخرف ما يطلب من المال، ليشتري سفنا ويستأجر رجالًا يصحبونه إلىٰ أرض موهومة يزعم أنها في غرب المحيط؟

قالت الملكة:

نعم يا فرديناند، نحن محتاجون إلىٰ كل درهم في أيدينا، ولكننا إذا لم ندفع لـ خريستوف كولمبس ما يطلبه فسيدفعه له

"جون" ملك البرتغال، فتكون له تلك الأرض الجديدة يرفع عليها علم البرتغال، ومن يدرىٰ؟ فقد يعاود العرب محاولتهم للوصول إلىٰ تلك الأرض، فيملكونها قبل أن نملكها أو يملكها البرتغال، فلا ينفعنا بعد ذلك في مقاومتهم درهم ولا دينار!

قال فرديناند:

فبماذا تشيرين عليَّ يا زوجتي العزيزة؟

قالت:

أشير عليك بأن تعد لـ خريستوف كولمبس ثلاث سفن كبيرة وتمنحه كل ما يحتاج إليه من المال، ليستأجر رجالًا يصحبونه في رحلته لاكتشاف الأرض الجديدة في غرب المحيط!

١٧

دسيسة عربية !

المدينة كلها في حركة، وفي ضجة كل اثنين يلتقيان لا بد أن يدور بينهما حديث عن ذلك الحدث الخطير فقد عقد الملك فرديناند، ملك إسبانيا، اتفاقًا مع البحار الإيطالي خريستوف كولمبس، علىٰ أن يمنحه ثلاث سفن كبيرة، ومبلغًا كبيرًا من المال، ليبحر في المحيط الأطلسي إلىٰ الغرب ليكتشف أرضًا جديدة؛ فإذا نجح في الوصول إلىٰ تلك الأرض، ولم تغرقه الأمواج، ولم تفترسه حيتان البحر، فله عشر ما يرجع به من الغنيمة ولملك الإسبان التسعة أعشار الباقية!

- "يا عجبًا! كيف يصدق الملك أن في غرب المحيط أرضًا؟"

قالها مواطن إسباني لرفيقه، فأجابه رفيقه والأعجب من هذا يا أخي

أنَّ ذلك البحار الإيطالي الدجال، يزعم أنَّ تلك الأرض هي الهند، والهند في الشرق، فأين الشرق من غرب المحيط؟

فرد عليهما إسباني ثالث من الذين تلقوا العلم في مدارس العرب بالأندلس:

ليس عجيبًا أن يذهب كولمبس إلىٰ الغرب فيصل إلىٰ الشرق، فإن الأرض كرة!

وانضم إليهم في الحديث شيخ هرم فالتفت إلىٰ ذلك الشاب قائلًا:

لو كانت الأرض كرةً كما لقنك العرب ليفسدوا عقلك ودينك، لانكب ماء البحار، وتدحرج الناس من فوق الأرض!

قال الأول ضاحكًا:

ولو أنها كانت كره كما يزعم خريستوف كولمبس، لخاف أن يذهب في تلك الرحلة، لئلا يسقط من حافة الكرة إلىٰ فراغ المجهول!

فمال عليه الشيخ هامسًا:

أوكد لك أن ذلك الدجال الإيطالي دسيسة عربية، دسها العرب علىٰ ملكنا فرديناند ليشغلوه بهذه الخزعبلات عن

الحرب التي أوشكت أن تفنيهم!

فأجابه الإسباني الشاب متحمسًا:

والله لقد خطر هذا في بالي؛ فإن أولئك العرب الذين يحتلون بلادنا، ما يزالون يزعمون كذبًا أن في غرب المحيط أرضًا، وأن رجالًا منهم وصلوا إلىٰ تلك الأرض؛ ولو كان الذي يزعمونه صحيحًا لما تركوا الفرصة تفلت من أيديهم، ولكنه وهم يذيعونه ليهيئوا فرصةً لمثل ذلك الدجال الإيطالي أن يخدع ملكنا الطيب بمشروعه الخيالي....

قال الشاب الذي تعلم في مدارس العرب:

أتنكرون أن ثمانيةً من العرب قد وصلوا إلىٰ تلك الأرض؟ لقد عشت في لشبونة، ورأيت شارعهم، وفيه الدار التي كانوا يسكنونها قبل أن يذهبوا وبعد أن عادوا وقصتهم يعرفها كل أهل لشبونة من العرب والبرتغال!

قال الشيخ ساخرًا:

لو كان البرتغال يعرفون هذه القصة ويؤمنون بها لبادر ملكهم إلىٰ انتهاز الفرصة، ولكنه أبىٰ مساعدة ذلك الدجال المحتال ورده عن بابه!

- لأنه بخيل!

- بل قل: لأنه أعقل وأحكم من أن يصدق هذه الوهم!

- أتعني أنَّ ملكنا ليس له عقل ولا حكمة؟

- لم أقل هذا!

- بل قلت شيئًا يشبه هذا!

- اذهب يا فتىٰ أفسد العرب عقلك ودينك!.....

مثل هذا الحديث كان يدور بين كل اثنين أو كل جماعة يلتقون في كل مدينة من مدن الأندلس في أواخر القرن الخامس عشر، والحرب وقتئذ دائرة بين العرب والإسبان، وخريستوف كولمبس يستعد لرحلته إلىٰ غرب المحيط...

١٨

رحلة كولمبس

أتم خريستوف كولمبس عدته للرحلة عبر المحيط الأطلسي، وكان أصعب شيء عليه أن يجد رجالًا يصحبونه في هذه المخاطرة المجهولة العاقبة ذلك لأن أكثر الناس لم يكونوا مؤمنين بتلك الأرض الجديدة في غرب المحيط!

لقد تعب خريستوف كولمبس كثيرًا حتىٰ وجد السفن ووجد المال فهل يعدل عن مشروعه لأنه لا يجد الرجال؟

وراح يخطب في كل مكان، ويحاول أن يقنع كل إنسان فلم ينضم إليه إلا بضعة نفر من هواة المخاطرة، وأكثرهم من الذين قرؤوا أو سمعوا قصة الشبان الثمانية الذين أبحروا من لشبونة إلىٰ تلك الأرض الجديدة منذ قرنين مضيا؛ فضرب خريستوف كولمبس كفًا بكف وهو يقول:

وا أسفا! ثمانية شبان من عرب لشبونة أعظم شجاعة من كل رجال إسبانيا!

فأجابه فتًىٰ عربي من "غرناطة":

لماذا تتعجب يا خريستو؟ لقد قطع العرب آلاف الأميال،

عبر الصحاري والجبال والبحار من صحراء الجزيرة في آسيا، حتىٰ وطئوا بأقدامهم هذه الأرض في أوروبا، وأطلوا علىٰ المحيط؛ فهل تستكثر علىٰ ثمانية من شبابهم أن يبحروا من لشبونة إلىٰ غرب المحيط؟

قال كولمبس في غيظ:

فلماذا لا تصحبنا أنت أيها الشجاع؟

قال الفتىٰ العربي:

سأصحبك؛ فابحث عن غيرىٰ من شباب قومك!

ومضت أيام، وخريستوف كولمبس يتصيد الرجال ليصحبوه في رحلته فكان أكثر المتطوعة من العرب وأقلهم من الإسبان؛ فعاد إلىٰ الملك فرديناند يطلب منه المعونة، وساعدته الملكة إيزابيلا مرةً أخرىٰ؛ فأرغم الملك عددًا من بحارته علىٰ الانضمام إلىٰ خريستوف كولمبس، وضم إليهم طائفةً منا المعتقلين في سجونه؛ جعل اشتراكهم في الرحلة ثمنًا

لحريتهم، ليكمل بهم العدد المطلوب من البحارة فاجتمع لـ خريستوف كولمبس بذلك مئة وعشرون رجلًا من مختلف الأجناس والصفات والحِرَف، توزعوا علىٰ ظهر ثلاث سفن تستعد للإبحار من شرق المحيط الأطلسي إلىٰ الأرض المجهولة في غرب المحيط...

وكان كولمبس خائفًا كل الخوف لأن أكثر الذين صحبوه كانوا مكرهين علىٰ صحبته، وليس لهم خبرة ولا رغبة في هذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر...

وكان أكثر خوفه لأنه غريب بين رفقاء رحلته؛ إذ كان منهم الإسبان ومنهم البرتغال ومنهم العرب من الأندلس أو من المغرب وليس منهم أحد من بلده...

وفي اليوم الثالث من أغسطس سنة ١٤٩٢ تهيأت السفن الثلاث للرحلة وكان علىٰ الشاطئ آلاف من الخلق يلوحون بالمناديل وفي عيونهم دموع وفي

صدورهم همٌ وقلق، إذ كانوا جميعًا في شك من إمكان عودة هؤلاء المسافرين أحياءً...

ورفعت السفن راياتها ونفخ الربان في صفارته وتهادت السفن الثلاث علىٰ وجه الماء متجهةً إلىٰ الغرب....

وانصرف المودعون وهم يتبادلون عبارات حزينةً كأنهم عائدون من تشييع جنازة...

وكان بين العائدين من الميناء بعض فتيان العرب، وكانوا مثل غيرهم يتبادلون عبارات حزينة، لا خوفًا علىٰ الذين ذهبوا أن يغرقوا ويبتلعهم المحيط، بل أسفًا علىٰ الرحلة في هذا الوقت الذي يحشد العرب فيه كل قواهم لحرب الإسبان، فليسوا مستطيعين أن يسبقوا إلىٰ تلك الأرض الجديدة ليرفعوا فوقها الراية العربية!

١٩

معركة على السفينة !

مضت السفن الثلاث تشق طريقها في عرض المحيط متجهةً إلىٰ الغرب، وقلوب البحارة متجهةً إلىٰ الشرق حيث خلفوا بلادهم وأولادهم وأهليهم، لا يدرون أيعودون إليهم سالمين غانمين، أو يطويهم موج المحيط فيأكلهم السمك لحمًا ويلفظ عظامهم في القاع...

ولم يكد شاطئ إسبانيا يبتعد عن عيونهم حتىٰ اشتد بهم القلق، وغلبهم الخوف علىٰ أنفسهم كأنهم مسوقون إلىٰ الموت؛ وبلغ القلق بواحد منهم أشده فقال في يأس وغضب:

والله لقد رَمينا بأنفسنا إلىٰ الهلاك بأيدينا، حين أطعنا ذلك الإيطالي الدجال وصحبناه في هذه الرحلة المشؤومة!

فأجابه آخر:

وهل كانت صحبته باختيارنا؟

وكيف نختار صحبة جاهل يزعم أن الهند في غرب المحيط، والهند وراء ظهرونا في الشرق؟

فأجاب بحار عربي من المتطوعة:

لماذا لا نصل إلىٰ الهند من الغرب، ما دامت الأرض كرة؟ أرأيتم النملة تمشي علىٰ البرتقالة من جانب إلىٰ جانب، لا تنحرف يمنةً ولا يسرةً فتصل من غرب البرتقالة إلىٰ شرقها، ومن شرقها إلىٰ غربها؟

فقاطعه البحار الأول قائلًا في شراسة:

اسكت أيها العربي فما نحن نمل مثلك ولا الأرض برتقالة!

قال العربي:

بل نحن جميعًا علىٰ الأرض كالنمل علىٰ البرتقالة، ولو أنَّ نملةً عاقلةً قالت لنملة أخرىٰ جاهلة: إن هذه البرتقالة التي تدبين عليها كرة، لسخرت من قولها كما تسخر أنت الآن من قولي، لأنها جاهلة لا ترىٰ من سطح البرتقالة إلا ما تحت قدميها!

فغضب البحار الإسباني وهب واقفًا وهو يقول في حدة:

أتبلغ بك الجرأة أن تصفني بالجهل وتشبهني بالنملة؟

ثم هم به ليضربه، ولكن البحارة حالوا بينهما وفضوا المعركة؛ فلما هدأ الأمر بينهما عاد الفتىٰ العربي يقول:

لست أدري سببًا لغضبك وإنكارك، وقد علمت كما يعلم كل عربي وإسباني في أرض الأندلس، أنَّ في غرب هذا المحيط أرضًا أخرىٰ، وطئتها أقدام العرب منذ سنين، قبل أن يخطر هذا الخاطر علىٰ قلب خريستوف كولمبس، بل قبل أن يولد خريستوف كولمبس، بل قبل أن يولد أبوه وجده...

وسمع العربي همهمةً، ورأي في عيون القوم غضبًا ولم يكن علىٰ ظهر تلك السفينة عربي غيره؛ إذ كان سائر المتطوعين من العرب في السفينتين الأخريين، فسكت برهةً، ولكنه لم يلبث أن استأنف قائلًا:

ومع ذلك فإن من حسن حظ الإسبان أن تتهيأ لهم هذه الفرصة والعرب مشغولون بأنفسهم ليصلوا إلىٰ الهند الجديدة قبل غيرهم ويرفعوا عليها راية، ولو كان العرب....

فلم يكد يلفظ كلمته حتىٰ صاح به أحدهم مقاطعًا

اخرس! لا تذكر رايتنا ولا غايتنا فقد علمنا أن هذه الرحلة المشؤمة ما هي إلا دسيسة من دسائس العرب، ليفقد مليكنا أحسن سفنه وخير بحارته، وليشتغل الشعب الإسباني بهذه الأباطيل عن تدبير خطته للقضاء عل بقايا العرب في المغرب والأندلس!...

وكانت هذه الكلمة بداية لمعركة لم تلبث أن احتدمت بين الفتىٰ العربي والبحارة الإسبان فتناولوه بأيديهم وبأرجلهم ثم حملوه فوق رءوسهم وألقوا به في الماء. وفار الماء فورةً ثم سكن، وابتلع اليم أول بحار من بحارة خريستوف كولمبس...

٢٠

مؤامرة على الربان

استمرت السفن الثلاث تشق طريقها في المحيط الأطلسي وعلي ظهرها خريستوف كولمبس ورجاله، ولم يكن رجاله جميعًا مخلصين له، فقد اشترك أكثرهم في الرحلة مكرهين بلا إرادة إذا لم يكونوا علىٰ يقين بأنَّ في غرب المحيط يابسة؛ ومن أجل ذلك كانت صدورهم ضيقةً وأخلاقهم غليظة، لا يكاد اثنان منهم يتحدثان حديثًا قصيرًا حتىٰ يدب بينهما الخلاف، ثم ينقلب الخلاف إلىٰ عراك، كانوا يائسين من الحياة ومن العودة إلىٰ الوطن، ومن أجل ذلك كان ضيق صدورهم وكان تهديد بعضهم لبعض بالقتل لسبب ولغير سبب، وازدادوا يأسًا من الحياة ومن العودة إلىٰ الوطن، حين رأوا السفن ماضية بهم في طريق واحد إلىٰ الغرب لا تنحرف يمنةً ولا يسرةً فكانوا يشعرون بزيادة البعد عن وطنهم كلما تقدموا ذراعًا إلي الأمام....

ولم تكن الريح دائمًا في مصلحتهم، بل كانت تهدأ أحيانًا فلا تكاد السفن تتحرك إلا ذراعًا بعد ذراع، كأنهم مربوطون في قاع المحيط بسلاسل، وتعنُفُ أحيانًا أخرىٰ فكأنهم علىٰ

السفينة حبات من القمح في غربال.

وتتابعت الأيام وهم علىٰ ظهر هذه السفن تسبح بهم فوق أمواج المحيط لا يرون فوقهم إلا السماء، ولا يرون تحتهم إلا الماء؛ وفي أحيان كثيرة كانت تعترض طريقهم في المحيط حيوانات بحرية هائلة فتدور بينهم وبينها معارك شديدة لا يكادون يخلصون منها إلا بتحويل دفات السفن إلىٰ اتجاه آخر فرارًا بأنفسهم من تلك الوحوش البحرية...

وتعاقبت الأسابيع أسبوعًا وراء أسبوع، وانقضىٰ شهران وهم بين السماء والماء، لا يدرون متىٰ يصلون إلىٰ الأرض الموعودة ولا متىٰ يقررون العودة يائسين، ولم يكن خريستوف كولمبس يخبرهم بشيء تطمئن نفوسهم إليه، ولم تظهر لهم علامة من علامات الأرض ولا طير من طيور السماء، ليستبشروا باقتراب تلك الأرض؛

وأخذت الأغذية التي كانوا يحملونها في السفن تقل شيئًا فشيئًا

حتىٰ أوشكت أن تنفد وقدروا أن رحلتهم يمكن أن تطول فينفد طعامهم قبل أن يصلوا إلىٰ شاطئ من الشواطئ؛ فأيقنوا بأنهم صائرون إلىٰ الهلاك المحتوم، وبأنَّ قائدهم العنيد لا يريد أن يعود بهم حتىٰ يطأ أرض الغرب أو يموت في الطريق إليها ويموت رجاله...

وكان هذا هو الذي يريده خريستوف كولمبس حقًا، إذ لم يكن يخطر بباله أن يعود قبل أن تطأ قدماه الأرض التي وطئتها أقدام العرب قبله بمئتي سنة مخافة أن يسخر منه عرب إسبانيا، وعرب المغرب، وعرب صقلية وجنوب إيطاليا إذ كان العرب في تلك البلاد جميعًا يعرفون مما قرؤوا في الكتب ومما سمعوا من رواة الأخبار أن في غرب المحيط أرضًا وصل إليها العرب منذ أزمان فما أخيب خريستوف كولمبس إن نكص علىٰ عقبيه ومعه بحارة الملك فرديناند وسفنه وأمواله ورايته!

كذلك كان يقول خريستوف كولمبس لنفسه، وكذلك كان يقول بعض الذين تعلموا في مدارس العرب من بحارته ولكن أكثر بحارته لم يكونوا راضين ولا مطمئنين، ويعتقدون أن قائدهم في تلك الرحلة مخرف، ضال، جاهل، يوشك أن

يهلكهم في ظلمات المحيط بتخريفه وضلاله وجهله فعولوا علىٰ التخلص منه بقتله لتتهيأ لهم الفرصة للعودة إلىٰ وطنهم قبل أن تعطب السفن وتنفد المؤونة...

واجتمع طائفة من البحارة في كل سفينة من السفن الثلاث، وأخذوا يتآمرون ويدبرون خطتهم لاغتيال خريستوف كولمبس، قبل أن يموتوا غرقًا أو جوعًا في ظلمات هذا المحيط الذي لا آخر له....

٢١

الفرصة الأخيرة....

وكان بين بحارة كولمبس، صبي صغير، من أصل عربي اسمه "إفراني" ولم يكن له أب ولا أم ولا أهل، لا مال وكان ولوعًا بالمغامرة محبًا للرحلة يريد أن يرىٰ مناظر جديدةً ويعرف عالمًا جديدًا ومن أجل ذلك انضم إلىٰ المتطوعين من بحارة خريستوف كولمبس...

وكانت سنُّه لا تزيد علىٰ بضع عشرة سنة، ولم تكن له تجارب تشجع خريستوف كولمبس علىٰ قبوله بين المتطوعين، ولكنه مع ذلك قبله تقديرًا لشجاعته..

وكان الصبىٰ "إفراني" هو أكثر البحارة أملًا في نجاح الرحلة وفي الوصول إلىٰ أرض جديدة في غرب المحيط؛ وكان يغتاظ غيظًا شديدًا حين يرىٰ يأس البحارة ورغبتهم في الرجوع قبل أن يكتشفوا تلك الأرض الجديدة؛ وكثيرًا ما كان يناقش البحارة الكبار ليحملهم علىٰ الصبر ويدخل في قلوبهم الأمل، فكانوا يضحكون منه ويقول بعضهم لبعض مشفقين أو ساخرين:

صبي صغير لا يعرف من حقائق الدنيا شيئًا!

وكان خريستوف كولمبس يبتسم في وجهه كلما رآه، ويداعبه بكلمات عذبة؛ ونشأت بينهما صلة من الود والمحبة فكان كولمبس يعطف عليه كأنه ولده، وكان إفراني يخلص لكولمبس كأنه أبوه..

وطالت أيام الرحلة، ومضىٰ شهران علىٰ البحارة في المحيط دون أن يروا علامةً واحدةً تبشرهم باقتراب الأرض، فأخذوا يفكرون جديًّا في التخلص من خريستوف كولمبس، ليحولوا دفات السفن عائدين إلىٰ بلادهم؛ وعلم إفراني بذلك فأسرع إلىٰ خريستوف كولمبس فأبلغه النبأ...

ولم يكن كولمبس يعرف كيف يحملهم علىٰ الهدوء والصبر لأن روح الثورة كانت تملأ نفوسهم ولم تظهر له ولا لأحد غيره علامة واحدة تدل علىٰ اقتراب الأرض؛ ولكنه برغم ذلك أراد أن يحتال لتهدئتهم، فجمع رؤساءهم، وزعم لهم أنه رأىٰ علامات تبشر بقرب وصولهم إلىٰ الأرض، ثم طلب منهم أن يصبروا يومين؛ فاطمأنَّ البحارة وصبروا...

ومضىٰ اليومان ولم تقترب الأرض، ولم تظهر علامة تبشر باقترابها فعاودهم القلق والغضب وروح الثورة، وقرروا أن يعودوا بأي وسيلة؛ ولكن الصبىٰ الشجاع إفراني قال لهم:

لقد صبرتم يومين من أجل قائدكم، فاصبروا يومين آخرين من أجلي فإما وصلنا إلىٰ الأرض وإما انضممت إليكم في الثورة والغضب وطلب الرجوع....

كان ذلك يوم ٩ اكتوبر سنة ١٤٩٢، ولم يكن لدىٰ إفراني حين قال كلمته أي أمل في الوصول إلىٰ الشاطئ في الموعد الذي حدده، ولكنه وعدهم ذلك الموعد ليكسب وقتًا ولينقذ خريستوف كولمبس من الموت علىٰ أيدي البحارة الثائرين....

ماذا يفعل يا ترىٰ هذا الصبي الشجاع إذا مضىٰ اليومان ولم يظهر الشاطئ؟

كيف يتخلص من البحارة، وكيف يتخلص معه الربان المخاطر خريستوف كولمبس؟

هذه هي الفرصة الأخير للنجاة، فإذا أفلتت فليس أمامهما إلا الموت قتلًا بأيدي البحارة أو الموت غرقًا في هذا المحيط العميق المظلم!...

وصعد الصبي علىٰ سارية السفينة وفي يده منظار بحري كبير ينظر به نحو الغرب، وقد قرر إلا يهبط عن السارية إلا حين يرىٰ الأرض، أو حين ينزله البحارة في الموعد ليقتلوه...

٢٢

هَنَاف على السارِيَة !

مضىٰ يوم كامل والصبي معلق علىٰ السارية، ومنظاره علىٰ عينه يحاول به أن يرىٰ الأرض الموعودة...

لم يبق إلا يوم واحد علىٰ الموعد الذي حدده فإن ظهرت له الأرض قبل أن تمضىٰ أربع وعشرون ساعة أخرىٰ فقد نجا ونجا خريستوف كولمبس معه وتحقق الأمل البعيد له ولهم جميعًا، ووطئوا بأقدامهم الأرض الجديدة أما إذا حان الموعد ولم تظهر الأرض فالويل له ولـ خريستوف كولمبس فسيقتلهما البحارة اليائسون الثائرون، ليحولوا أشرعة السفن إلىٰ الشرق، ليعودوا بها إلىٰ بلادهم التي فارقوها منذ أكثر من تسعة أسابيع...

كان إفراني الصغير خائفًا كل الخوف، مشفقًا كل الإشفاق، يخشىٰ أن ينقضي الأجل المضروب ولا يتحقق للبحارة ما وعدهم به، وكان كلما لمح قطعة من السحاب علىٰ بعد ظن أنها سرب من الطير فيفرح لأن الطير لا تحلق في العادة إلا بالقرب من اليابسة ثم لا يلبث أن يتبين أنها قطعة من السحاب فيعود إلىٰ الهم والقلق، ومنظاره علىٰ عينه يتطلع به إلىٰ قريب وإلي بعيد، وقلبه يخفق خفقانًا شديدًا حتىٰ يكاد يقف. كان كالمحكوم عليه بالإعدام حين يقترب موعد التنفيذ!

وكان خريستوف كولمبس مثل صَبِيٍّ في قلق شديد، فقد كان يعلم أن البحارة الثائرين لا يمكن أن يصبروا أكثر مما صبروا، ويعجب لشجاعة الشبان العرب الثمانية الذين قطعوا ظلمات هذا المحيط وحدهم علىٰ ظهر مركب شراعي حتىٰ وصلوا دون أن يشكوا أو يتألموا أو يغلبهم اليأس علىٰ إرادتهم!

أما البحارة علىٰ ظهور السفن الثلاث فكانوا في شغل آخر خطير فقد أجمعوا أمرهم علىٰ الفتك بقائدهم وبكل من يمكن أن يعاونه إذا حان الموعد المضروب ولم تظهر لهم الأرض، كانوا من اليأس كالمجانين، لا يسمع لهم إلا ثورة وصخب وضجيج ولو أنهم كانوا يعلمون في تلك اللحظة أنَّ الأقوات التي كانوا يحملونها قد نفدت، وأنهم مشرفون علىٰ مجاعة مُهلكة لا نجاة منها لزادوا جنونًا وثورةً، ولعجَّلوا بتنفيذ مؤامرتهم قبل انتهاء الموعد المضروب؛ ولكن هذه الحقيقة الخطيرة لم يكن يعلمها إلا شخص واحد، هو خريستوف كولمبس نفسه لأنه كان يحتفظ بمفاتيح مخازن المؤونة حتىٰ لا يَطَّلِعَ أحد غيره علىٰ ذلك السر الخطير!

الموت يرفرف بجناحه علىٰ هذه السفن الثلاث الضالة في ظلمات المحيط، ولا منجِّي إلا الله...

وانقضت الليلة الثانية وإفراني معلق علىٰ السارية ولم يبق

علىٰ الموعد المضروب إلا ساعات...

وفي الصباح، حين تشرق الشمس ولا تظهر الأرض تبدأ معركة الحياة والموت علىٰ ظهور السفن الثلاث وسيكون أول الضحايا إفراني وكولمبس!...

وبدت لمحات الفجر، ثم أخذ النور ينتشر وتجمع بعض البحارة حول السارية التي يقف عليها إفراني وهم يصيحون به:

انزل أيها الغلام المفتون، فلا أرض هنا ولا حياة!

ولكن إفراني في تلك اللحظة لم يكن يسمع شيئًا من صياحهم فقد كان مشغولًا بشيء آخر لا يخطر لهؤلاء الصائحين علىٰ بال...

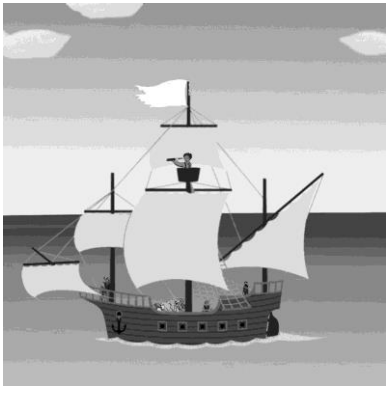

كان منظاره علىٰ عينه وهو يحدِّق فيه بشدة يحاول أن يرىٰ أبعد مما يرىٰ ثم لم يلبث أن هتف وهو لم يزل علىٰ السارية الأرض... الأرض... لقد وصلنا...

٢٣

الهند الجديدة !

لقد كان البحار العربي الصغير إفراني هو أول من رأي الأرض من بحارة خريستوف كولمبس!

رآها بمنظاره الصغير وهو واقف علىٰ سارية السفينة في آخر لحظة من لحظات الأمل، وفي الوقت الذي كان فيه البحارة الثائرون المتمردون يشحذون خناجرهم لقتله وقتل خريستوف كولمبس نفسه، ليعودوا بالسفن إلىٰ إسبانيا بعد أن قطعوا الأمل في الوصول إلىٰ أرض جديدة في غرب المحيط...

لو كانت أرض أمريكا أبعد مما هي الآن بضعة أميال لنفذ البحارة وعيدهم ومات خريستوف كولمبس قبل أن يكتشف أمريكا ولمات معه البطل الصغير إفراني!

ولكن هتاف إفراني من فوق السارية قد غيَّر التاريخ، وغيَّر الجغرافيا، ورد هؤلاء البحارة الثائرين بعد الصخب والهياج واليأس إلىٰ الصبر والهدوء والأمل، فتزاحموا علىٰ حافة السفن الثلاث ينظرون إلىٰ بعيد وقلوبهم تخفق بأمل جديد...

ولم ير البحارة شيئًا في أول الامر، لأن الأرض كانت لم

تزل بعيدة عنهم ولأنَّ إفراني كان أحد بصرًا منهم، ولأنه كان فوق وكانوا كلهم تحت، ولأنه كان يضع علىٰ عينه منظارًا ولم يكن علىٰ عيونهم مناظير..

وعاد القلق إلىٰ نفوس البحارة وظن بعضهم أن الغلام يخدعهم ليكسب وقتًا جديدًا ولكنهم لم يلبثوا أن رأوا سربًا من الطير يرفرف بأجنحته في سمائهم قادمًا من نحو الغرب فأيقنوا أنهم علىٰ مقربة من اليابسة...

ثم ظهرت لهم أعالي الأشجار فأيقنوا يقينًا لا شبهة فيه أنهم علىٰ مقربة من الأرض الموعودة...

وعلي ظهور السفن الثلاث، استدار البحارة حلقات حلقات يرقصون ويغنون أغنيات إسبانية وعربية وكان إفراني في وسط حلقة من تلك الحلقات يرقص رقصةً عربيةً مشهورةً كان العرب يرقصونها في أفراحهم

بمدينة غرناطة، آخر العواصم العربية في الأندلس!

وحين ألقت السفينة الأولي مراسيها علىٰ الشاطئ، رفع خريستوف كولمبس علمًا إسبانيا، وغرزه علىٰ أكمة عالية وهو يقول: باسم إيزابيلا وفرديناند، نرفع علم إسبانيا علىٰ أرض الهند!

وكان إفراني يرفع عينيه إلىٰ الراية المرفوعة وهو يقول في سره: ما كان أجدرها أن تكون رايةً عربية!

وكان هذا الخاطر الذي يدور في رأس الصبي، يدور مثله في رءوس كثير من بحارة خريستوف كولمبس فقد كان بين بحارة خريستوف كولمبس عدد قليل من البحارة العرب!

وكان خريستوف كولمبس يعتقد حتىٰ تلك اللحظة أنه وصل إلىٰ أرض الهند، ولم يخطر في باله قط كما لم يخطر في بال أحد من الذين وطئوا قبله تلك الأرض أنها أرض جديدة هي أرض أمريكا!

أمريكا... التي يتردد اسمها اليوم علىٰ كل لسان، وتبلغ شهرتها كل أذن ويصل صيتها إلىٰ كل شبر من أقطار المعمورة لم يكن لها وجود منذ خمسمئة سنة، لأنها كانت أرضًا مجهولةً أكثر مما يجهل بعض الناس الآن أدغال أفريقيا...

نعم، قد وصل العرب إلىٰ تلك الأرض قبل خريستوف كولمبس بأكثر من مئتي سنة، ولكنهم لم يرفعوا عليها راية، ورفع عليها خريستوف كولمبس رايته فنُسب إليه دون غيره فضل ذلك الاكتشاف!

وكان وصول خريستوف كولمبس إلىٰ أول جزيرة قابلته من أمريكا في يوم الجمعة الثاني عشر من أكتوبر سنة ١٤٩٢، وهو أول تاريخ أمريكا كما يذكره الجغرافيون الأوربيون، ولو أنصفوا لذكروا أن تاريخ أمريكا يبدأ قبل ذلك اليوم بنحو مئتي سنة؛ لأن المكتشفين العرب وصلوا إلىٰ تلك الأرض قبل خريستوف كولمبس بنحو مئتي سنة؛ ولكن العرب في ذلك التاريخ البعيد كانوا مشغولين بشيء أهم من ذلك أنساهم تسجيل التاريخ الذي وصل فيه مكتشفوهم إلىٰ الجزر الأمريكية فقد كانت أوروبا كلها في ذلك الوقت تحارب العرب...

كانت المعارك الطاحنة تدور بين الإسبان والعرب في إسبانيا...

وكانت معارك أخرىٰ طاحنة تدور بين الصلبيين والعرب في مصر والشام...

وكانت معارك من نوع آخر تدور بين العرب وعدوهم علىٰ سواحل البحر المتوسط أو علىٰ الحدود المشتركة بين بلاد العرب وبلاد الروم في الشمال؛ فأين يجدون الفرصة لتسجيل اكتشاف أرض جديدة وهم في حروب متصلة لا يضمنون معها بقاءهم في الأرض التي يعيشون عليها؟

ومن أجل ذلك لم يكتبوا ذلك التاريخ، ونُسب المجد كله لخريستوف كولمبس، ولإسبانيا دون العرب، وهم الذين سبقوا خريستوف كولمبس وإسبانيا إلىٰ اكتشاف تلك الأرض الجديدة!

٢٤

الهنود الحمر !

وكان علىٰ الشاطئ حين وصل خريستوف كولمبس إلىٰ تلك الأرض، لفيف من الرجال الوطنيين لهم بشرة سمراء قريبة من الحمرة؛ ولما كان كولمبس معتقدًا أن هذه الأرض التي وصل إليها هي أرض الهند، فقد سمَّىٰ هؤلاء الرجال الذين رآهم علىٰ الشاطئ: "الهنود الحمر" وكانت هذه التسمية خطأً ولا شك، ولكن اسم "الهنود الحمر" ظل مع ذلك هو اسم السكان الأصليين في أمريكا إلىٰ اليوم، لأنه هو الاسم الذي سماهم به خريستوف كولمبس!

ولما رأي هؤلاء الوطنيون الحمر خريستوف كولمبس ورجاله، ورأوا السفن التي قدموا عليها، دُهشوا دهشةً عظيمة، لأنهم لم يروا من قبل سفينة مثل تلك السفن؛ ولم يروا ناسًا في مثل الثياب التي كانوا يلبسونها؛ وكان أعظم ما أدهشهم، منظر أشرعة السفن حين تطوىٰ وحين تنشر، فقد بدا لهم أن هذه السفن طيور كبيرة ذات أجنحة بيضاء، وأن هؤلاء الرجال من سكان السماء هبطوا إليهم علىٰ ظهر هذه الطيور!

ومن أجل ذلك لم يتعرضوا لكولمبس وأصحابه بسوء

وتواروا خوفًا منهم في أول الأمر وراء الأشجار وهو ينظرون إليهم من بعيد متلصصين حذرين...

ثم تجرؤوا بعد قليل فاقتربوا منهم شيئًا فشيئًا وهم لا يزالون خائفين حذرين فشجعهم كولمبس بحركته علىٰ الاقتراب من رجاله، حتىٰ وقفوا معهم وجهًا لوجه؛ ثم أخذ الوطنيون الحمر يجسون أجسام البحارة بأيديهم، كأنهم لا يصدقون أنهم بشر مثلهم من سكان الأرض!...

وأراد كولمبس أن يزيد هؤلاء الوطنيين اطمئنانًا وأنسًا فقدم إليهم طائفةً من الهدايا كان قد أحضرها معه، منها أوان زجاجية وقبعات ملونة، وأجراس صغيرة ذات رنين..

وقد أخذ الأطفال الوطنيون الأجراس الصغيرة التي أهداها كولمبس إلىٰ آبائهم، وجعلوا يدقونها مسرورين وهم يرقصون علىٰ نغماتها...

وكانت أول أرض وطئتها أقدام خريستوف كولمبس ورجاله هي أرض جزيرة من مجموعة جزر "بهاما".

وكان الأهالي مهذبين، فرأوا أن يقدموا إلىٰ كولمبس ورجاله هدايا في مقابل الهدايا التي أخذوها منه، فقدموا لهم خبزًا مصنوعًا من بعض جذوع النبات، وحلقات مصنوعة من الذهب كان نساء الهنود الحمر يضعن مثلها في أنوفهن للزينة...

وقد فرح بحارة كولمبس فرحًا كبيرًا بهذه الحلقات لأنهم عرفوا أن هؤلاء الوطنيين يملكون ذهبًا وأغراهم ذلك بالتقرب إلىٰ الأهالي ليحصلوا منهم علىٰ مزيد من تلك الحلقات الذهبية، أو ليرشدوهم إلىٰ المكان الذي يستخرجون منه الذهب!

وكان الأهالي لا يعرفون للذهب قيمةً أكثر من أنه معدن براق فلم يجدوا مانعًا من إرشادهم إلىٰ مكان الذهب وأشاروا عليهم أن ينحدروا في البحر إلىٰ الجنوب...

استأنفت السفن الثلاث سيرها إلىٰ الجنوب طمعا في الوصول إلىٰ أرض الذهب وكانت روح البحارة عالية، وآمالهم قوية، فقد تحقق لهم الأمل البعيد بالوصول إلىٰ الأرض الجديدة في غرب المحيط الأطلسي، التي كانوا

يعتقدون ويعتقد قائدهم خريستوف كولمبس أنها أرض الهند!

وأخذ كولمبس ورجاله يكتشفون جزيرةً بعد جزيرة، وكلما وصلوا إلىٰ جزيرة نزلوا يبحثون عن الذهب، ثم يستأنفون رحلتهم وكانت أكبر الجزر التي اكتشفوها هي جزيرة "كوبا" التي يعيش فيها اليوم نحو مليون من العرب![١]

ومن جزيرة كوبا أبحرت السفن إلىٰ جزيرة أخرىٰ فسماها كولمبس: "إسبانولا" أي إسبانيا الصغيرة؛ وهي الجزيرة التي تسمىٰ اليوم: جزيرة "هايتي" وكان وصولهم إليها في ديسمبر سنة ١٤٩٢، فرأىٰ كولمبس أن ينتظروا في هذه الجزيرة أيامًا ويحتفلوا فيها بعيد الميلاد السعيد...

ولكن عيد الميلاد لم يكن سعيدًا في هذه الجزيرة كما كان كولمبس ورجاله

(١) هذا التعداد يرجع إلىٰ الوقت الذي طُبع فيه الكتاب عام ١٩٦١م أو قبله.

يُؤَمِّلون، فقد هبت ريح عاتية في الليلة التي سبقت ليلة عيد الميلاد، فأخذت السفن الراسية في الميناء تترجح وتتصادم من شدة العاصفة، ولعبت بها الأمواج لعبًا عنيفًا، فتحطمت أكبر السفن الثلاث تحطمًا تامًا، وبقيت سفينتان اثنتان لا تتسعان لكل البحارة...

وا أسفا! ماذا يفعلون الآن وهم في هذه الجزيرة المنقطعة وبينهم وبين وطنهم آلاف الأميال؟...

نعم قد وصلوا إلىٰ الأرض الجديدة في غرب المحيط ونجحوا في رحلتهم وحصلوا علىٰ ذهب كثير، ولكن ما فائدتهم من ذلك كله وهم لا يملكون إلا سفينتين اثنتين لا تتسعان إلا لنصف البحارة ويبقىٰ نصفهم بلا وسيلة للرجوع إلىٰ الوطن....

يا لها من فرحةٍ لم تتم!

٢٥

أرصه الذهب والطماطم !

بدا القلق واضحًا علىٰ وجوه البحارة، فقد كانوا يعرفون علىٰ وجه اليقين أنَّ بعضهم لابد أن يبقىٰ في تلك الجزيرة، لأنَّ السفينتين الباقيتين لا تتسعان لهم جميعًا، فتأهب كل واحد من بحارة السفينة الغارقة لاحتلال مكان علىٰ إحدىٰ السفينتين الأخريين، بالحيلة أو بالقوة، وتأهب كل واحد من بحارة السفينتين الباقيتين للدفاع عن مكانه ولو اقتضاه الأمر أن يستل خنجره، وأوشكت أن تنشب فتنة يسيل فيها دم وتزهق أرواح!

ورأي خريستوف كولمبس بوادر الشر تلمع في عيون البحارة فأراد أن يحتال حيلةً لتهدئة النفوس الثائرة فقال لهم: إننا سنبقىٰ في هذه الجزيرة وقتًا قد يمتد أسابيع، أو أشهرًا، ريثما نضع أيدينا علىٰ مناجم الذهب الكثيرة في هذه البلاد فلا نعود إلا وقد حملنا معنا أسباب الغنىٰ لأهلينا هنالك..

فأثرت هذه الكلمة في نفوس البحارة، وانصرفوا للبحث عن الذهب بين صخور الجبل وكثبان الرمل، وفي مجاري الماء المتدفق في الأنهار والقنوات...

وألهاهم بريق الذهب عن التفكير في الأهل والوطن، فلما حان الموعد الذي حدده خريستوف كولمبس بعد ذلك للرحيل من جزيرة هايتي إلىٰ إسبانيا، كان بين البحارة طائفةٌ يؤثرون البقاء وقتًا آخر لتتهيأ لهم الفرصة كي يجمعوا من الذهب مقدارًا أكبر...

وأبحر سائر البحارة مع كولمبس علىٰ ظهر السفينتين..

وكان معهم في العودة اثنا عشر رجلًا من الهنود الحمر في زيهم الوطني ويزين رءوسهم الريش!

وكان معهم غير هؤلاء الهنود الحمر أشياء أخرىٰ حملوها من الأرض الجديدة إلىٰ أوروبا: كان معهم ذهب وكان معهم طماطم وكان معهم بطاطا وبطاطس وذرة وكان معهم تبغ..

قد يدهش بعض الناس في هذه الأيام ويتساءلون بينهم:

وما قيمة الطماطم أو البطاطا أو البطاطس أو التبغ ليحملوه في هذه الرحلة الطويلة من أمريكا إلىٰ أوربا؟

ولا داعي للدهشة فإن هذه الأشياء التي نراها كثيرة بين أيدينا في هذه الأيام لم تكن معروفة قبل اكتشاف أمريكا...

إن أرض أمريكا هي التي منحتنا الطماطم والبطاطا، وثمارًا أخرىٰ لم يكن أهل الدنيا القديمة يعرفونها قبل سنة ١٤٩٣..

إنها نعم عظيمة جاءتنا من تلك البلاد الجديدة، ولكن تلك البلاد أيضا هي التي جاء منها التبغ الذي يدخنه بعض الناس، فيتلفون مالهم وصحتهم جميعًا!

إن التدخين آفة عظيمة تغطىٰ سيئاتها علىٰ كثير من الحسنات التي جاءتنا من تلك الأرض الجديدة!

٢٦

موكب العودة

عاد خريستوف كولمبس إلىٰ أوروبا في ربيع سنة ١٤٩٣ بعد أن خلف في جزيرة هايتي ثمانية وثلاثين بحارًا، يقيمون في قلعة إيزابيلا التي أنشاها هو وأصحابه في تلك الجزيرة لتكون مخزنًا للذهب الذي يحصلون عليه من الأرض الجديدة.....

ووصل إلىٰ ميناء "برشلونة" علىٰ الساحل الأوربي من بلاد البرتغال بعد غيبة طالت بضعة أشهر كان الناس في أثنائها يظنون أنه قد هلك في المحيط وهلك أصحابه معه...

وهبط بحارته من السفينتين، ومعهم الهنود الحمر بثيابهم وتيجانهم التي يتخذونها من الريش، وفي أيديهم القسي والسهام...

وكان منظر هؤلاء الهنود رائعًا في عيون آلاف المستقبلين الذين احتشدوا في الميناء ليرحبوا بالمغامر الجريء الذي استطاع أن يقهر صعاب المحيط الأطلسي حتىٰ وصل إلىٰ أرض الهند!

فقد كان أهالي إسبانيا والبرتغال يظنون كما كان يظن خريستوف كولمبس ويظن أصحابه معه، أن تلك الأرض التي وصلوا إليها في غرب المحيط هي أرض الهند...

واستقبل الناس كولمبس بكل مظاهر التكريم والحفاوة وهم الذين كانوا يشيعونه منذ أشهر بالاستهزاء والسخرية!

ودقت الأجراس في جميع الكنائس احتفالا بعودة المستكشفين الأبطال!

ورحب الملك فرديناند والملكة إيزابيلا بخريستوف كولمبس ترحيبًا عظيمًا وأقاما له حفلة استقبال رائعةً شهدها الأمراء والنبلاء وعظماء المملكة جميعًا وركب كولمبس جوادًا عربيًّا يخطر به بين صفين من الجند، ومن ورائه الهنود الحمر الذين جاء بهم من الأرض الجديدة....

فلما وصل إلىٰ مجلس الملك والملكة، ركع بين أيديهما ولكن الملكة أمرته أن ينهض ليتخذ مقعده بين الأمراء والنبلاء.....

وقرأ الملك والملكة التقرير الذي وصف فيه كولمبس رحلته ومشاهداته، وجلسا ساعات يستمعان إلىٰ حديثه الشائق عن الأرض الجديدة التي وصل إليها....

وقد شجع نجاحه الملك علىٰ أن يمنحه سبع سفن ليبدأ بها رحلةً جديدة إلىٰ تلك الأرض؛ وفي هذه المرة كان المتطوعون يتزاحمون عليه تزاحمًا شديدًا، كل منهم يريد أن يصحبه في رحلته الثانية، وهم الذين كانوا يهربون منه في الرحلة الأولي...

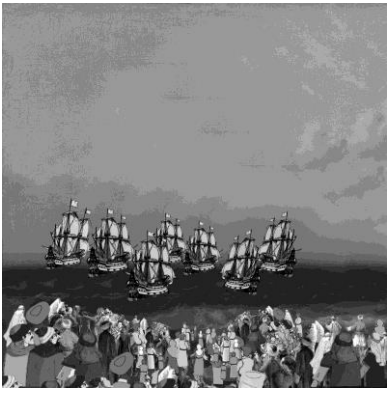

ولما عاد كولمبس إلىٰ الأرض الجديدة في رحلته الثانية وجد البحارة الثمانية والثلاثين الذين تركهم في قلعة إيزابيلا

بجزيرة هايتي قد ماتوا جميعًا، إذ قتلهم السكان الوطنيون بعد سفره، لأنهم أرادوا أن يستعبدوهم ويسيطروا عليهم.....

وقد استمر خريستوف كولمبس في رحلته حتىٰ وصل إلىٰ سواحل أخرىٰ في الأرض الجديدة، لم يكن قد وصل إليها في رحلته الأولي.

ثم قام برحلة ثالثة، اكتشف فيها سواحل غير هذه وتلك....

وكان في بعض الجزر التي وصل إليها رجال شقر كالذين وصفهم الشبان العرب الثمانية...

وفي جزيرة من الجزر رأىٰ شجرةً ضخمة، وفي ساقها شق وفي الشق أوراق عتيقة مطوية؛ فبسطها بين يديه ليقرأها ولكنه لم يستطع أن يقرأها، لأنها كانت مكتوبة بالعربية؛ فأخذها منه بحار عربي من أصحابه فقرأها، فإذا هي مذكرات كتبها عربي من أهل "مالي" كان يعيش في تلك الجزيرة وحيدًا منذ أكثر من مئتي سنة....

وعرف خريستوف كولمبس، كما عرف أصحابه جميعًا

أنهم لم يكونوا أول من وصل إلىٰ تلك الأرض من شرق المحيط؛ لأن رجالًا من عرب "مالي"، وشبانًا من عرب الأندلس، قد سبقوهم إلىٰ تلك الأرض منذ أكثر من مئتي سنة.

وفي كل البلاد التي وصل إليها خريستوف كولمبس كان يرفع الراية الإسبانية، ويخضع الوطنيين لسلطانه بقوة السلاح ليكونوا عبيدًا له وللأوربيين الذين جاءوا معه!.....

إن أمريكا الآن ليس فيها إلا قليل جدًا من سكانها الأصليين الذين كانوا يعيشون فيها آمنين مطمئنين قبل أن يصل إليهم خريستوف كولمبس وأصحابه ليغتصبوا وطنهم ويتخذوهم عبيدًا؛ أما الذين نسميهم أمريكيين الآن، فهم سلالة المستعمرين الأوربيين الذين نزحوا إلىٰ أمريكا بعد ذلك ليعيشوا سادةً علىٰ حساب البائسين من سكان البلاد الأصليين!

خاتمة

كل ما تضمنته هذه القصة من الحوادث الكبار، ذكره المؤرخون العرب القدماء، واعترف به كثير من المؤرخين الأوربيين...

وفي كثير من المخطوطات العربية القديمة المحفوظة في بعض المكتبات الأوربية، تفصيلات وافية عن بعض المحاولات العربية التي وصفناها...

وقصة الشبان اللشبونيين الثمانية، مذكورة في بعض المؤلفات العربية التي مات مؤلفوها قبل أن يولد خريستوف كولمبس!

ولم تزل الصحف العربية والأوربية تنشر في أوقاتٍ متقاربة أو أوقاتٍ متباعدة بحوثًا جديدةً لمؤرخين أوربيين، وجغرافيين أوربيين، تثبت أن العرب قد عرفوا ذلك الطريق، ووصلوا إلىٰ تلك الأرض، قبل أن يصل إليها خريستوف كولمبس، وقبل أن يكون فرديناند وإيزابيلا...

لو لم يكن العرب في ذلك التاريخ البعيد مشغولين برد العدوان الصليبي علىٰ بلادهم، في مصر والشام، وفي المغرب والأندلس لكان تاريخ أمريكا غير ما هو اليوم...

ومن يدري إلىٰ أين كانت تتجه عجلة التاريخ؟

إن عجلة التاريخ كانت تتجه إلىٰ أن تكون أمريكا أرضًا عربيةً، فلو لم تنحرف العجلة يومئذ عن اتجاهها بسبب الأحداث التي وصفناها، لكانت أمريكا اليوم جزءًا من الوطن العربي!

فهرس

مكتبة سندباد ٢
شاطئ بحر الظلمات ! ٧
دولة العرب في الأندلس..... ١٠
المحاولة الأو لىٰ ١٣
المحاولة العربية الثانية..... ٢١
مغامرون من لشبونة..... ٢٧
جزيرة الغنم !..... ٣٤
الفتيان في الأسر..... ٤١
العربي الذي سبقهم..... ٤٧
الرائد الأول ٥٣
مخاوف الملك ! ٦٢
علي الشاطئ الأفريقي ٦٦
كل غريب إلىٰ مآب ! ٧٠
العودة إلىٰ لشبونة..... ٧٤
الحرب بين العرب والإسبان..... ٨٠
خريستوف كولمبس.. ..... ٨٣

مشورة إيزابيلا ٨٨
دسيسة عربية ! ٩١
رحلة كولمبس..... ٩٥
معركة علىٰ السفينة !..... ٩٩
مؤامرة علىٰ الربان ١٠٣
الفرصة الأخيرة..... ١٠٧
هتاف علىٰ السارية ! ١١١
الهند الجديدة ! ١١٤
الهنود الحمر !..... ١١٩
أرض الذهب والطماطم ! ١٢٤
موكب العودة..... ١٢٧
خاتمة ١٣٣
فهرس..... ١٣٥

إخراج فني
معاذ علي الجراحي